

الفصل الأول حياة ابن حزم وجهوده السياسية

المبحث الأول: أوضاع الأندلس السياسية وأثرها على فكر ابن حزم:

المبحث الثاني: أصل ابن حزم ونشأته:

المبحث الثالث: تكوين ابن حزم العلمى ومصادر فكره:

المبحث الرابع: القيمة العلمية لمصنفات ابن حزم:

المبحث الخامس: ابن حزم وجهوده السياسية:

المبحث السادس: إحراق كتبه ووفاته

obeikan.com

المبحث الأول

أوضاع الأندلس السياسية وأثرها على فكر ابن حزم :

امتدت حياة ابن حزم لتشمل فترتين من تاريخ الأندلس هما :

1- فترة ضعف الخلافة التي تبدأ بتولى هشام المؤيد ⁽¹⁾ الخلافة عام 366هـ/976م ، وتنتهي بسقوطها عام 422هـ/1030م .

2- عصر ملوك الطوائف ، والذي تفككت فيه الأندلس إلى ولايات وإمارات متعددة ، عقب انقراط عقد الخلافة الأموية بالأندلس .

ونظرا لصغر سن هشام وضعفه فقد تلاشت شخصيته أمام شخصية حاجبه المنصور بن أبى عامر ، الذى نجح فى السيطرة على مقاليد الأمور ، والقضاء على خصومه ومنافسيه ، حتى أصبح الأمر الناهى بحيث لم يعد لهشام من الخلافة سوى الاسم ⁽²⁾ .

وقد كان لهذا أثره على فكر ابن حزم السياسى حيث اشترط البلوغ والقوة للخليفة ، فضلا عن تطبيق نظام الحكم المركزى ؛ ليتسنى له مباشرة كل صغيرة وكبيرة فى الدولة ، وقد تمكن المنصور بفضل الجيش البربرى الذى كونه أن يوقف كل تقدم للنصارى جنوبى نهر دويره ، وأن يستولى على مدن ليون وشتت ياقب وبرشلونة ، ورأى النصارى على يديه من الخوف والهلع ما جعل أحد الرهبان يتنفس الصعداء لوفاته ويدون فى حولياته " فى سنة 1002م مات المنصور ودفن فى الجحيم " ⁽³⁾ .

(1) هو ابن الحكم المستنصر تولى الخلافة وهو ابن عشرة أعوام وأشهر ، أمه أم ولد تسمى صبح ، خلع من الخلافة سنة 399هـ/ 1008م لمزيد من التفاصيل أنظر ابن حزم ، ذكر أوقات الأمراء ، رسائل ابن حزم 196/2

(2) محمد بن عبدالله بن الآبار: الحلة السيرة ، تحقيق حسين مؤنس ، دار المعارف ، القاهرة ، ط 2، 1405هـ 1985/م ، 1/268، 269 .

(3) Dozy , Recherchés sur L.Histoire et la Litterature de L.Espagne pendant le moyen age, parise-leyde, troisieme edition, 1881,T.1,p.193 ، وانظر آنخل جونثال بالثيا ، تاريخ الفكر الأندلسى ، ص 11، 12 ، ستانلى لين بول ، العرب فى أسبانيا، ترجمة على الجارم ، دار المعارف بمصر ، ط 9، 1947م ، ص 152 .

وبعد وفاة المنصور خلفه على حجابة الأندلس ابنه عبد الملك المظفر الذى سار سيرة أبيه طوال حكمه ، وبعد وفاته سنة 398هـ/1007م خلفه أخوه عبد الرحمن شنجول ، وكان دون أبيه وأخيه كفاية فطمحت نفسه للإمامة العظمى ، وحمل هشام المؤيد على أن يعهد له بالخلافة من بعده ، مما أثار ثائرة الأمويين والمضريين عليه ، وكانت فتنة خلّع فيها هشام وسجن ، وقتل عبد الرحمن سنة 399هـ/1008م .

تولى الخلافة محمد بن هشام المهدي بعد هشام المؤيد (1) ، وبقي كذلك إلى أن قام عليه هشام بن سليمان بن الناصر (2) سنة 399هـ/1008م لكنه هزم أمام المهدي ، ثم اجتمع البربر بعد ذلك على سليمان بن الحكم (3) وقام الصراع بينه وبين المهدي ، ومن ثم خرج سليمان عن قرطبة Cordoba سنة 400هـ/1009م ، وتحالف مع النصارى على محاربة المهدي ، ثم عاد فالتقوا جميعا فى معركة قنتيش بالوادى الكبير بقرطبة ، وكانت الدائرة فيها على أهل قرطبة حيث قتل منهم ما يربو على عشرين ألفا (4) .

كان لهذه المعركة أبعاد هامة ، إذ قضت على خلافة المهدي وعلى كل أمل فى إعادة الخلافة الأموية إلى ما كانت عليه من قوة ، كما ترتب عليها انقسام عسكر الأندلسيين إلى قسمين متضادين ؛ البربر من ناحية والأندلسيين من ناحية أخرى . فضلا عن أنها أشعرت حكام النواحي أن لا أمل فى إعادة سلطان مركزى ، فبدأ كل منهم يستقل بناحيته (5) .

(1) ولد سنة 366هـ/976م ، تولى الخلافة سنة 399هـ/1008م ، وكانت مدة ولايته ستة عشر شهرا ، حيث قتل على يد العبيد مع واضح الصقلبي سنة 400هـ/1009م أنظر ابن حزم ، ذكر أوقات الأمراء ، رسائل 196، 197/2

(2) أحد أحفاد عبد الرحمن الناصر ، قام بالثورة على المهدي ، مع البربر ، إلا أنه هزم ووقع فى الأسر فقتله المهدي أنظر نفس المصدر السابق والمكان والصفحتين

(3) قدمه البربر للخلافة بعد قتل عمه هشام بن سليمان ، وكان من أهل العلم والفهم ، قتل سنة 407هـ/1016م على يد على بن حمود لمزيد من التفاصيل أنظر ابن الأبار ، الحلة السيرة ، 2/5-12

(4) ابن حزم ، ذكر أوقات الأمراء وأيامهم ، رسائل ، 196، 197/2 .

(5) حسين مؤنس ، تحقيق الحلة السيرة ، 2/6 هامش (2) .

دخل سليمان قصر- قرطبة بعد المعركة وبويع له بالخلافة في ربيع الاول سنة 400هـ/1009م ، واستقر المهدي بعد هزيمته بطليطلة toledo واستعان بالنصارى هو الآخر وأقبل بهم إلى قرطبة ، فخرج إليه سليمان فهزمه المهدي ، ودخل قرطبة مستوليا على الخلافة . ولم يلبث كذلك إلى أن وثب عليه العبيد العامريون مع واضح الصقلبي (1) فقتلوه ، وصرفوا هشاما المؤيد ، وفي الوقت نفسه كان سليمان بن الحكم يجوس الأندلس برجاله ومن معهم من البربر فينهبون ويقتلون إلى أن دخلوا معه قرطبة عنوة في شوال سنة 403هـ/1012م . فكانت الفتنة البربرية التي استباح فيها البربر قرطبة وراح ضحيتها أناس كثيرون (2) وكان ابن حزم قد عاش هذه الفتن وأصابه هو وأسرته ما أصاب الناس من الملاحقة والاعتقال (3) ، وانعكس ذلك علي كتاباته التي اتسمت بالحدة والحزن ، كما فطن ابن حزم من خلال معاشته لهذه الأحداث أن البربر الذين أتى بهم المنصور بن أبى عامر وكون بهم الجيش ، كانوا السبب فيما أصاب الأندلس من فتن واضطرابات ؛ ومن ثم فالواجب عليه أن يعيد القوة للخلافة الأموية من خلال مساندته لبعض رجالها الصالحين الأقياء أمثال المرتضى والمستظهر كما سيأتى بعد قليل.

ثار علي بن حمود (4) في سنة 407هـ / 1016م علي سليمان بن الحكم وقتله بيده ، وتولي الخلافة مدعيا أن هشام المؤيد عهد إليه بالأمر ليكتسب شرعية أموية ، وذلك لأن الأندلسيين ما كانوا يرضون أن يتولي أمورهم غير الأمويين ، وقد اختلف عليه العبيد الذين بايعوه وقدموا عبد الرحمن بن محمد المرتضى. وزحفوا إلى غرناطة GRANADA التي تغلب البربر عليها . وكان ابن حزم في صفوف المشاركين لمؤازرة المرتضى. ، ولكن العبيد ندموا علي

(1) كان محسوبا للخلافة وعاملا في قصورها .

(2) ابن حزم ، نفس المصدر السابق ، رسائل 197/2 ؛ وانظر : ابن الأبار ، نفس المصدر السابق ، 7/2 .

(3) ابن حزم ، طوق الحمامة ، تحقيق الطاهر مكي ، دار الهلال ، القاهرة ، 1412 هـ / 1992م ، ص 245،246 .

(4) تولى الخلافة مدعيا أن هشام المؤيد عهد بها إليه ، وظل خليفة عامين إلا شهرين ، إلى أن قتله صقالبة له في الحما سنة 408هـ/1017م لمزيد من التفاصيل أنظر ابن حزم ، ذكر أوقات الأمراء ، رسائل 199/2

إقامته لما رأوا من صرامته وخافوا عواقب تمكنه وقدرته فسدوا عليه من قتله عام 408 هـ / 1017 م، ثم انقلب صقالبة علي بن حمود عليه وقتلوه في نفس العام، وبعده تولى أخوه القاسم بن حمود⁽¹⁾، الذي أمن الناس في عهده، وظل في الخلافة حتي عام 412 هـ / 1021 م، فثار عليه ابن أخيه يحيى بن علي بالقه MALAGA وزحف بعساكره إلى قرطبه فدخلها عام 413 هـ / 1022 م وتسمي بالخلافة ثم هرب عنها إلى مالقة عام 414 هـ / 1023 م⁽²⁾.

ومما سبق يتضح أن دخول بني حمود العلويين الأندلس كان أحد الأسباب التي زادت من الفرقة والنزاع بالأندلس ومن ثم فقد لقوا معارضة شديدة من قبل ابن حزم. بعد خروج يحيى بن علي من قرطبة اتفق رأى أهلها على رد الأمر إلى بنى أمية فاختروا ثلاثة منهم وهم: عبدالرحمن بن هشام بن عبدالجبار، وسليمان بن المرتضى، ومحمد بن عبدالرحمن بن هشام، وانتهى الأمر بمبايعة الأول بالخلافة في رمضان سنة 414 هـ / 1023 م. وتلقب بالمستظهر⁽³⁾. وبالرغم من قصر مدة حكمه فإن ابن حزم ترك عليه أثرا في بعض النواحي الساسية من خلال صداقتها قبل توليه الخلافة، حيث عمل المستظهر برأى ابن حزم في اختيار الوزراء من خيرة العلماء والأدباء.

(1) تولى الخلافة بعد مقتل أخيه علي، وكان أسن منه بعشر سنوات، تلقب بالمأمون، وقتل خنقا سنة 431 هـ / 1039 م أنظر نفس المصدر السابق، ص 200

(2) ابن حزم، ذكر أوقات الأمراء، رسائل 198/2 - 201، ويحيى بن علي من نسل الحسن بن علي بن أبي طالب تولى الخلافة بقرطبة سنة 413 هـ / 1022 م، قتل سنة 427 هـ / 1035 م أنظر نفس المصدر، ص 201، ومالقة مملكة بين اشبيلية وغرناطة علي بحر الزقاق لمزيد من التفاصيل انظر، موسي بن محمد بن سعيد وآخرين، المغرب في حلي المغرب، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط 2، 1964 م، 422-424/1.

(3) ولد سنة 392 هـ / 1001 م، وتولى الخلافة وهو ابن اثنتان وعشرون عاما، وهو أحد أحفاد عبدالرحمن الناصر، كان في غاية الأدب والبلاغة ورقة النفس، قتل بعد أسابيع من تولى الخلافة أنظر ابن الأبار، الحلة السيرة، 17-12/2

وبالرغم من صلاح المستظهر وقوة شكيمته فإن الأمر لم يدم له طويلا، إذ سرعان ما خرج عليه محمد بن عبد الملك المستكفي سنة 414هـ/1023م وتولى الخلافة، ولم يكن له من الأمر شيء وإنما أرسله الله محنة على أهل الأندلس، فقد خنق ابن عمه ابن عبد العزيز العراقي، وسجن ابن حزم وابن عمه (أبا المغيرة)، وهدم قصور عبدالرحمن الناصر (1) ونظرا لما أظهره المستكفي من فسق وجور فقد خرج عليه أهل قرطبة وخلعوه سنة 416هـ/1025م وتولى بعده يحيى بن علي الحمودي مرة ثانية وظل كذلك حتى سنة 417هـ/1026م، ثم قطعت دعوته من قرطبة فاجتمع رأي أهلها على رد الأمر إلى بني أمية فقدموا هشام بن محمد المعتمد بالله وبايعوه بالخلافة سنة 418هـ/1027م، ولكنه كان أضعف من أن يحقق الآمال المعقودة عليه؛ ومن ثم فقد خرجت عليه فرقة من الجند سنة 422هـ/1030م وخلعوه، وسقطت الخلافة بذلك وانقطعت الدولة الأموية من يومئذ بالأندلس (2).

نتج عن ذلك أن انقسمت الأندلس إلى دويلات صغيرة متصارعة بلغ عددها ثلاث وعشرين إمارة، انضوت تحت لواء ثلاثة أحزاب عمل كل منها على بسط سلطانه على الأندلس؛ وهم: الحزب الأول ويمثله أهل الأندلس وكان من زعمائهم بنو عباد اللخميون بأشبيلية، وبنو جمهور بقرطبة، وبنو خزرون في أركش، وبنو صمادح بالمرية، وبنو هود

(1) ابن سعيد، نفس المصدر السابق، 1/55، 54. والمستكفي ولد سنة 366هـ/976م وتولى الخلافة بعد قتل المستظهر، وهو ابن ثمان وأربعين سنة قتل مسموما بمدينة سالم الأندلسية أنظر ابن حزم، ذكر أوقات الأمراء، رسائل 2/203، 202، وأبو المغيرة هو عبدالوهاب بن أحمد بن عبدالرحمن بن سعيد بن حزم، كان أديبا مشهورا، وألف عدة تواليف توفي بعسكر ابن ذي النون صاحب طليطلة سنة 438هـ/1046م. أنظر: خلف بن بشكوال، الصلة، تحقيق إبراهيم الإيباري، دار الكتاب المصري واللبناني، القاهرة - بيروت، ط 11، 1410هـ/1989، 2/555 ترجمة 819.

(2) ابن حزم، ذكر أوقات الأمراء، رسائل 2/202، 203؛ وانظر رينهرت دوزي، المسلمون في الأندلس، ترجمة حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1994م، 2/215-224. وهشام المعتمد بالله ولد سنة 364هـ/974م، وكان ضعيفا مترددا، خلع من الخلافة، واعتقل ن ثم هرب إلى لاردة، ومات بها سنة 427هـ/1035م أنظر: ابن حزم، ذكر أوقات الأمراء، رسائل 2/203، 204.

بسر قسطة ، وبنو برزال في قرمونة ، وبنو نوح في مورور ، أما الحزب الثاني فيمثله البربر حديثو العهد بالأندلس ومن زعمائه بنو زيري في غرناطة ، وبنو حمود في مالقة ، أما الحزب الثالث فيمثله كبار الصقالبة الذين استقلوا بشرق الأندلس (1) .

لقد حاول كل فريق من هذه الأحزاب أن يحيط ملكه بسياس شرعى يستمد منه سلطانه بإقامة خليفة بجواره ، فبنو عباد أقاموا رجلا يدعى خلف الحصرى خليفة وكان شديد الشبه بهشام المؤيد ، وادعوا أنه هو (2) ، وبنو حمود دعوا لأنفسهم بالخلافة معتمدين على أصلهم العلوى الشريف ، أما الصقالبة فقد حاول بعضهم وهو مجاهد العامرى إحياء الخلافة في مملكته باستقدام رجل أموى من أشرف قرطبة وأثبت اسمه في سكتته وأعلامه ولقبه بالمنتصر بالله (3) ، ومن ملوك الطوائف من خطب للخلفاء العباسيين (4) .

وهكذا فقد تعددت الخلافة الأندلسية بتعدد ملوك الطوائف واصطدمت مصالحها لقرب المسافات بينها ، وأصبحت مظهرا من مظاهر الفوضى السياسية وعاملا من عوامل

(1) دوزى ، السابق ، 224-216/3 ؛ وانظر أحمد مختار العبادى ، فى تاريخ المغرب والأندلس ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، الإسكندرية ، (د.ت) ، ص 275، 276، وأركش كورة كثيرة الأرزاق ، وهى إحدى مدن إشبيلية أنظر ابن سعيد ، المغرب ، 315/1 ، وسر قسطة مدينة تقع شرق قرطبة تعرف بالمدينة البيضاء ، والمرية إحدى مدن كورة البيرة وهى باب الشرق ومفتاح التجارة ، ومرسى للسفن وما يقوم به الأسطول ، وقرمونة مدينة تقع إلى الشرق من إشبيلية والغرب من قرطبة وبينها وبين قرطبة خمسة وستون ميلا ، ومورور مدينة متصلة بقرمونة وهى من مدن قرطبة وبينها ستون ميلا . لمزيد من التفاصيل أنظر محمد بن أيوب بن غالب ، فرحة الأنفس ، تحقيق لطفى عبدالبديع ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، جامعة الدول العربية ، ربيع أول 1375هـ / نوفمبر 1955م ، مجلد 1 ج 2 ص 287 ، 288 ، 283 ، 284 ، 292 ، 293 .

(2) ابن حزم ، نقط العروس ، رسائل ، 97، 98/2 .

(3) أحمد مختار العبادى ، مرجع سابق ، ص 278 . ومجاهد هو يوسف بن على أحد فحول الموالى العامريين ، كان المنصور بن أبى عامر قد رباه وعلمه مع مواليه القرآن والحديث والعربية ، فكان مجيدا فى ذلك ، أصله من الروم . أنظر ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر ، مؤسسة الأعلمى للمطبوعات ، بيروت ، 1391هـ / 1971م ، 164/4 .

(4) احمد بن محمد المقرئ ، نفح الطيب ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية الكبرى ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ط 1 ، 1367هـ / 1949م ، 198/1 .

الفتنة، الأمر الذي دعا ابن حزم إلى التنديد بذلك في نوازله ورسائله فأفتى بعدم جواز تولي الخلافة لأكثر من واحد، محتجا بقول الرسول (ص) (إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما)⁽¹⁾، ثم تعدى حد الفتوى إلى التنديد فوصف تعددية الخلافة بأسلوب ساخر قائلا: "فضيحة لم يقع في العالم إلى يومنا مثلها أربعة رجال في مسافة ثلاثة أيام في مثلها، كلهم يتسمى بإمرة المؤمنين، ويخطب لهم بها في زمن واحد..."⁽²⁾، وقوله حينما تصالح كل من يحيى بن علي بن حمود بقرطبة وعمه القاسم بإشبيلية: "خليفتان تصالحا وهذا أمر لم يسمع في الدنيا بأشنع منه ولا بأدل على إدار الأمور"⁽³⁾، وترجع معارضة ابن حزم للتعددية إلى الأسباب الآتية:-

أولا: نصوص السنة التي تعارض ذلك، وفي مقدمته حض الرسول (ص) بقتل الخليفة الثاني حين الاجتماع على خليفة، وابن حزم كفقيه ظاهري لم يكن ليدع أحاديث الرسول إلى غيرها.

ثانيا: الفرقة التي شهدتها الأندلس في عصره من جراء ادعاء أكثر من واحد أحقيته بالخلافة، ومحاربة كل منهما للآخر طمعا في ممتلكاته، مما كان له أكبر الأثر في إنهاك قوة الأندلس واضطراب أحوالها.

ثالثا: أن الواقع التاريخي أثبت خطأ رؤية الفقهاء ممن أجازوا التعددية بشرط البعد الجغرافي منعا من الاصطدام. وليس أدل على ذلك من نشوب الحرب والصراع بين العباسيين ببغداد، والأمويين بالأندلس من ناحية، والعباسيين والفاطميين من ناحية أخرى؛

(1) لمزيد من التفاصيل أنظر المحلى، 1/66، 8/423؛ الفصل، 3/5، 4؛ والحديث رواه مسلم في كتاب الإمامة من صحيحه.

(2) أنظر: نقط العروس، رسائل 2/97، 98.

(3) نفس المصدر، ص 92.

ومحاولة كل طرف السيطرة على ممتلكات الآخر ، والتوسع على حسابه ، بالرغم من البعد الجغرافي الكبير بينهم (1) .

رابعا : أن أول من أجاز التعددية هو محمد بن كرام السجستاني زعيم الكرامية أحد فرق المرجئة ، وصاحبه أبو الصباح السمرقندي ثم أتباعهما (2) ، وابن حزم كان من أشد فقهاء الأندلس معارضة للفرق الإسلامية .

خامسا : أن الإجماع قد انعقد بين الصحابة على وحدة الخلافة ، ومن بعدهم أهل السنة والخوارج والشيعة والمعتزلة ومعظم المرجئة (3) ؛ وإجماع الصحابة عند ابن حزم أصل ثالث بعد القرآن والسنة . ثم زاد عليه إجماع أهل السنة ومعظم الفرق الإسلامية .

وبالرغم من الجهود السابقة التي بذلها ابن حزم بخصوص هذا الشأن ، فإن تأثيره لم يتعد الأثر الفكري ، حيث نرى جماعة من أصحابه يرأسونه يستوثقون منه عن رأيه بشأن التعددية التي شهدتها الأندلس بعد سقوط الخلافة الأموية ، فأجابهم : بأن ذلك فتنة سوء أهلك الأديان ، وأن كل حاكم لمدينة من مدن الأندلس بعد سقوط الخلافة فإنه محارب لله ورسوله وساع في الأرض بالفساد ، لما وقع على أيديهم من الفرقة والاضطراب (4) ، وبعد وفاته نجد الإمام محمد بن أحمد الأنصاري المفسر المشهور بالقرطبي يتبنى رأيه في رفض

(1) أحمد مختار العبادي ، في تاريخ المغرب والأندلس ، ص 193-209 ؛ وانظر عبد المنعم ماجد ، ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر ، دار الفكر ، القاهرة ، ط 4 ، 1414 هـ / 1994 م ، ص 141-165 ؛ اتفق أهل السنة وجميع المرجئة والخوارج والمعتزلة والشيعة على وحدة الخلافة وعدم جواز إمامين في وقت واحد ، وشذ قوم من أهل السنة وبعضا من الفرق الإسلامية فجوزوه ، وانتقد الماوردي من الشافعية ذلك لمزيد من التفاصيل أنظر ابن حزم ، الفصل ، 3/3-6 ؛ الماوردي ، الأحكام ، ص 10 .

(2) البغدادي ، الفرق ، ص 195 ؛ وانظر : ابن حزم ، الفصل ، 3/4 . وابن كرام ولد في سجستان ، سجنه طاهر بن عبدالله بنيسابور ، وخرج منها إلى القدس فمات بها سنة 255 هـ / 868 م . أنظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ، 11/28، 27 . وأبو الصباح لم أعثر له على ترجمة .

(3) ابن حزم ، الفصل ، 3/4، 3 .

(4) أنظر فتواه مفصلة بخصوص هذا الشأن عند ابن حزم " رسالة التلخيص ، رسائل ، 2/173 ؛ وكذا في ملاحق كتابنا ابن حزم الظاهري وأثره في المجتمع الأندلسي .

التعددية ، مستندا على حججه في إبطالها والرد على من أجازها (1) ؛ وهو ما يوضح امتداد أثره حتى القرن السابع الهجري / الثالث عشر- الميلاى بالأندلس . بل امتد لخارجها إلى المشرق حيث تأثر (الماوردى) الفقيه الشافعى بالكثير من آرائه السياسية على ما سيتضح بعد قليل ، وتبنى رأيه فى التعددية ، ولم يؤيد رأى معاصريه من فقهاء المشرق ممن أجازوها (2) . ولم يقف الأمر بملوك الطوائف عند هذا الحد، بل راحوا يحاكون الخلفاء العباسيين والفاطميين فى ترفهم وألقابهم؛ فمنهم من تسمى بالمعتصم، والمتوكل ، والمعتمد، والمعتمد ، والمأمون، والمستعلي، وغير ذلك (3) وزادوا فى غيهم فحالفوا النصارى ضد بعضهم البعض فى مقابل الحصول على مكاسب مادية وتوسيع ممتلكاتهم على حساب إخوانهم من المسلمين، الأمر الذى دفع ابن حزم إلى معارضة ذلك وأفتى أصحابه فى نوازله بأن معظم ملوك الطوائف محاربون لله ورسوله وساعون فى الأرض فسادا.

وهكذا فقد تركت الحالة السياسية المضطربة على ابن حزم أثرا بالغاً حتى عبر عن ذلك بقوله لصاحبه الذى صنف له طوق الحمامة : " فأنت تعلم أن ذهني متقلب بما نحن فيه من بنو الديار والخلاء عن الأوطان وتغير الزمان ونكبات السلطان وتغير الإخوان وفساد الأحوال .. " (4) .

(1) أنظر : الجامع لأحكام القرآن ، تحقيق أحمد عبدالعليم ، دار الشعب ، القاهرة ، ط 2 ، 1372 هـ ، 264/1 وما بعدها .

(2) أنظر : الأحكام السلطانية ، ص 10 .

(3) عبد الواحد المراكشي ، المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، ضبط محمد سليمان العريان ومحمد العربي العلمي ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة ، ط 1 ، 1368 هـ / 1949 م ، ص 70 .

(4) أنظر : طوق الحمامة ، ص 335 .

obeyikan.com

المبحث الثاني

أصل ابن حزم ونشأته:-

ولد أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بربض الزاوية من قرية لبلة niebla الواقعة في بلدة منت ليشم بغرب الأندلس صباح يوم الخميس نهاية شهر رمضان سنة 384هـ / 7 نوفمبر 994م⁽¹⁾، وقد عاش حياته الأولى في صحبة أخيه أبي بكر الذي كان يكبره بخمس سنوات في قصر- أبيه أحد وزراء المنصور بن أبي عامر، وابنه المظفر من بعده، وكانت تربيته في تلك الفترة على أيدي جوارى القصر- الذي كان مقاما في الشارع الآخذ من النهر الصغير على الدرب المتصل بقصر- الزاهرة، والملاصق لدار المنصور بن أبي عامر⁽²⁾،

(1) صاعد بن أحمد الأندلسي، طبقات الأمم، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، 1993م، ص 98، 99، وقد ذهب آنخل جوثالث بالنثيا وغيره إلى أن مولد ابن حزم سنة 383هـ / 993م أنظر: تاريخ الفكر الأندلسي، ص 213، وهذا خطأ من وجهين:- الأول أن ابن حزم الإمام النسابة والمؤرخ النقاد كتب تاريخ مخرولده لتلميذه صاعد بخطه، وهو ما عرضناه بأعلاه، ولا يمكن أن نترك قوله إلى سواء وهو الأعلام بتاريخ مولده، الثاني:- أن كل من ترجموا له أجمعوا أن مولده سنة 384هـ / 994م. أنظر مثلا محمد بن أبي نصر الحميدى، جذوة المقتبس، تحقيق إبراهيم الإيبارى، دار الكتاب المصرى واللبنانى، القاهرة- بيروت، ط 2، 1410هـ / 1989م، 489/2؛ ابن بشكوال، الصلة، 605/2؛ محمد بن عثمان الذهبى، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسى، مؤسسة الرسالة، ط 11، 1419هـ / 1998م، 190/18؛ ابن كثير، البداية والنهاية، 569/12؛ ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب، دار إحياء التراث العربى، (د.ت)، 299/3؛ Asin placios, Aben hazam, T.1, P.38. ولبللة قرية في غرب الأندلس قرب المحيط الأطلنطى، ومننت ليشم تعرف الآن باسم مونتيخار Montejar، وتقع على بعد سبعة كيلومترات شمال مدينة ولبة الحالية. أنظر محمد بن على بن الشباط، وصف الأندلس، تحقيق أحمد مختار العبادى، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، 1967م، 1968م، مجلد 14 ص 117.

(2) ابن حزم، طوق الحمامة، ص 122، 1123، 166. وقد توفي أخيه أبو بكر في الطاعون الذى اجتاحت قرطبة في عام 401هـ / 1010م أنظر، نفس المصدر، ص 257. وقد أقيم مكان قصر ابن حزم الآن كنيسة سان لورينزو بحى سان لورينزو. والزهاء مدينة أقامها المنصور سنة 368هـ / 978م بالقرب من قرطبة، وجعلها مقرا للحكم والإدارة لمزيد من التفاصيل أنظر محمد بن عبدالله الحميرى، صفة جزيرة الأندلس، تحقيق ليفى بروفنسال، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1937م، ص 80- 82.

ومن ذلك نعرف مدى المكانة التي كان يحظى بها والد ابن حزم لدى المنصور بن أبي عارم حتى جاوره في السكن .

وكان لابن حزم إلى جانب القصر السابق مجموعة من الدور بعضها بالجانب الشرقي من قرطبة في ربض الزاهرة ، والآخر ببلاط مغيث في الجانب الغربي منها (1) الأمر الذي يوضح لنا الثراء الذي كان يتقلب فيه ابن حزم في حياته الأولى ، حيث كان يلبس الحرير ولا يرضى من المكانة إلا بالسريير (2) كما يتضح لنا حجم الإقطاعات التي كان يمنحها المنصور لكبار رجال دولته المخلصين أمثال والد ابن حزم ، فضلا عن الذكاء الذي كان يتحلى به والد ابن حزم حتى حظى بهذه الدور ، وهو ما انعكس على ولده من بعده ، لكن ليس في عالم السياسة ، بل في دنيا العلم .

أما عن أصل ابن حزم فقد ثار الجدل حوله قديما وحديثا وقد تفصينا جل الأقوال التي قيلت بخصوص هذا الشأن في كتابنا " ابن حزم الظاهري وأثره في المجتمع الأندلسي " وانتهينا إلى فارسيته اعتمادا على عدة براهين نذكر منها :

الأول :- قول ابن حزم نفسه بفارسيته وهو الحجة في الأنساب حتى لقبه ابن خلدون بإمام النسابين والعلماء (3) ، ومن ثم فلا يمكن أن نترك قوله إلى سواه . **الثاني :-** أن ابن حزم لو لم يكن فارسيا لكان نصرانيا ، ولو كان من المولدين لشنع عليه أهل عصره قاطبة . ولكن لم نر ذلك إلا عند ابن حيان ، ولو كان ما قاله صحيحا لما التفت الناس إلى قول ابن حزم عن نفسه ، ولشنعوا بنصرانيته معتمدين على ابن حيان .

الثالث :- أن ابن حزم لو كان منتحلا للنسب الفارسي لكان ذلك فرصة لخصومه ، وهم كثير في محاربة فكره وهدم آرائه ، خاصة وهو من مدرسة الحديث التي تغلب الجرح على التعديل ، فضلا عن أن من اختصاصات علماء الجرح والتعديل النظر في أوطان الرواة

(1) نفسه ، ص 245 .

(2) الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، 18 / 190 .

(3) أنظر : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، 97/6 .

وأنسابهم . ولم نجد أحدا من علماء هذا الشأن غمزه في نسبه بل كلهم أثبتوا فارسيته ، وأجمعوا على ثقته ودقته في النقل (1)

الرابع :- إجماع من ترجموا له على فارسيته وعروبته بالولاء .

الخامس :- تمنى ابن حزم ترك الأندلس والرحلة إلى المشرق ، ولعله في ذلك كانت تحدوه نزعة الاتصال بأرومته الفارسية بالمشرق ، إلى جانب الالتقاء بأتباع المدرسة الظاهرية به .

السادس :- معرفة ابن حزم باللغة الفارسية وإجادته لبعض ألفاظها (2) ، وهذا ينم عن اعتزازه بأصله الفارسي .

خرج ابن حزم من وسط أسرة عرفت الإسلام منذ جده الأعلى يزيد بن أبي سفيان ، وكان خلف أول من دخل الأندلس من أسرته في صحبة الأمير عبدالرحمن الداخل ، وكان مقامه في لبلة (3) ، ومن ذلك نعرف أن مقر هذه الأسرة كانت الشام بعد مشاركة يزيد أصل هذه الأسرة في الفتوحات الإسلامية بها ، ولما خرج عبدالرحمن إلى الأندلس خرج معه خلف بن معدان . وقد بدأت هذه الأسرة تحتل مكانها الرفيع كواحدة من كرائم العائلات بالاندلس في عهد الحكم المستنصر ، ونجحت في امتلاك قرية بأسرها هي منت ليشم (4) ، ولا يعلم هل

(1) أنظر : أحمد بن محمد بن خلكان ، وفيات الأعيان ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، 1398هـ/1978م ، 3/325 ؛ الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، 18/187، 184 ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، 12/569 ؛ أحمد بن علي بن حجر ، لسان الميزان ، دائرة المعارف الكائنة في الهند ، 1330هـ ، 4/198 ؛ عبدالرحمن جلال الدين السيوطي ، طبقات الحفاظ ، تحقيق علي محمد علي ، مكتبة وهبه ، القاهرة ، ط 1 ، 1393هـ/1973م ، ص 436 ؛ أبوالمحسن يوسف بن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، 1353هـ/1935م ، 5/75 ؛ ابن العماد الحنبل ، شذرات الذهب ، 3/299 .

(2) يعقوب يوسف الفلاح ، ابن حزم لغويا ، رسالة دكتوراه ، كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة ، 1400هـ/1980م ، ص 176-179 .

(3) الذهبي ، مصدر سابق ، 18/185 ؛ محمد أبوزهرة ، ابن حزم حياته وعصره ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1373هـ/1954م ، ص 27 ؛ سهير فضل الله ، سيرة ابن حزم ، ص 17 .

(4) ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، تحقيق أحمد فريد الرفاعي ، دار المأمون ومكتبة القراء والثقافة الأدبية ، (د.ت) ، 12/240 ؛ وانظر عبدالحليم عويس ، ابن حزم ، ص 58 ،

خلف بن معدان هو الذى تملكها أم أبنائه من بعده ؛ ولعل ذلك يحيلنا إلى مدى ذكاء هذه الاسرة الذى انعكس بدوره على أحمد بن سعيد وولده ابن حزم من بعده.

ويعتبر أحمد بن سعيد أحد مشاهير هذه الأسرة ومؤسس ملكها حتى قال عنه ابن حيان : " الوزير المعقل فى زمانه الراجح فى ميزانه ... هو الذى بنى بيت نفسه فى آخر الدهر برأس رابية وعمده بالخلال الفاضلة من الرجاحة والمعرفة والدهاء والرجولة " (1) ، وكان لهذه الصفات إلى جانب اتجاهه للحزب الاموى وعمق ولائه لأمرائه وخلفائه دور مهم فى استوزار المنصور له سنة 381هـ/991م ، وبلغ من شدة ثقته به انه كان يستخلفه على المملكة أوقات مغيبه عنها ، وصير خاتمه فى يده (2) ، وكان لأحمد بن سعيد مجلس يحضره العلماء والشعراء أمثال أبى عمر بن حبرون وخلف بن رضا (3) ، وكان له باع طويل فى الشعر ومشاركة قوية فى البلاغة والادب حتى إنه ليتعجب ممن يلحن فى مخاطبة أو يجيء بلفظة قلقة فى مكاتبة (4) ، وقد كان لهذا أثره على ولده ابن حزم فى تمكنه من اللغة والشعر واهتمامه بهما ، حتى أن بلاغته كان لها من التأثير أنها تأخذ بمجامع القلوب وتنفذ إلى أعماق النفوس فى أسلوب سهل ممتنع رقيق يخلو من الاستطرادات ويتسم بطول النفس وجمال النكتة وخفة الروح ، كما كان أحمد بن سعيد من المشاركين فى حركة الإفتاء بالأندلس من خلال مجالسه العلمية والمناظرات التى كانت تدور فى قصره حتى قال عنه ابن العماد : " كان مفتيا لغويا متبحرا فى علم اللسان " (5) ، وهذه العبارة توضح الأثر الذى تركه أحمد بن سعيد على ولده ابن حزم الذى اعتمد فى فتواه وتفسيره لنصوص القرآن والسنة على ظاهر اللغة (6) ، ومن ثم

(1) نقلا عن ابن بسام ، الذخيرة ، قسم 1 مجلد 1 ص 170 .

(2) . 35-36 ، P. 1 ، T. 1 ، Aben hazam de cordoba ، Asin Placios ، وانظر إحسان عباس ،

تاريخ الأدب الأندلسى ، عصر سيادة قرطبة ، دار الثقافة ، بيروت ، ط 1 ، 1960م ، ص 247، 248.

(3) الضبى ، بغية الملتبس ، ص 263 ؛ وانظر إحسان عباس ، المرجع السابق ، ص 248 .

(4) الحميدى ، جذوة المقتبس ، 1/199 ؛ وانظر : المقرئ ، نفح الطيب ، 6/72 .

(5) أنظر : شذرات الذهب ، 3/163 .

(6) عن استخدام ابن حزم للغة كأساس فى الفتوى والتفسير أنظر ، الفصل ، 2/7، 4، 5 ؛ رسائل ابن حزم ،

كان والده أحد الأسباب التي دفعته إلى المنهج الظاهري في الفتيا والتفسير بالرغم من أنه كان مالكي المذهب .

ظل أحمد بن سعيد وزيرا بعد المنصور لابنه المظفر ، وأخيه عبدالرحمن شنجول إلى أن أعفى من منصبه في عهد محمد المهدي ، وترك منية المغيرة موطن كبار موظفي البلاط وعاد لسكنه القديم في بلاط مغيث بعيدا عن صخب السياسة ، وبعد اغتيال المهدي في ذي الحجة 400هـ/1010م ومبايعة هشام المؤيد ثانية بعد الزعم بموته . اصطدم أحمد بن سعيد بالقائد الصقلبي واضح محسوب الخلافة الذي لاحقه وسجنه وصادر أمواله ، وظلت الفتن والنكبات تتوالى على بني حزم حتى وفاة أحمد بن سعيد في ذي القعدة 402هـ/1012م⁽¹⁾ ، وكان لهذه النكبات أثرها السيء على ابن حزم إذ أنها زادت من حزنه ، وكانت أحد أسباب حدته التي تظهر جلية في مصنفاته .

(1) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص246 ؛ وأنظر الطاهر مكي ، دراسات عن ابن حزم ، ص69،70 .

obeikan.com

المبحث الثالث

تكوين ابن حزم العلمي ومصادر فكره:-

كان ابن حزم قد بدأ حياته العلمية بحفظ القرآن الكريم وبعض الأشعار مع التدرب على الخط وهو لا يزال صغيراً ، ثم اتجه لدراسة الحديث وعلومه وهو في الرابعة عشر من عمره على يد شيخه الأول أحمد بن محمد بن الجسور قبل الأربعمئة ، ثم تتابعت تحصيلاته عن كل من اشتهر بالحديث يقرطبة (1) ، وأما ما روى عن أبي محمد بن العربي واعتمد عليه بعض الباحثين المحدثين من أن سبب تعلم ابن حزم الفقه أنه شهد جنازة فدخل المسجد فجلس ولم يركع فقال رجل قم فصل تحية المسجد ، وكان قد بلغ ستة وعشرين عاما ، ثم لما رجع من الجنازة دخل المسجد فبادر بالركوع فقبل له ليس هذا بوقت للصلاة ، وكان بعد العصر فانصرف وهو حزين ، وقال لمربيه دلى على دار الفقيه ابن دحون . فقصده فدله على الموطأ ثم بدأ المناظرة بعد ثلاثة أعوام . وكذا ما روى عن أبي محمد بن العربي أيضا من أن ابن حزم قام في الوزارة من وقت بلوغه إلى انتهاء سنه ستة وعشرين عاما ، وقال إننى بلغت هذا السن وأنا لا أدرى كيف أجبر صلاة من الصلوات (2)

فهاتان الروايتان ساقطتان من وجوه :-

الأول : أن ابن حزم بدأ سماعه للحديث من شيخه ابن الجسور قبل الاربعمئة ، وكان سنه آنذاك أربعة عشر- عاما ، ثم تتابعت تحصيلاته بعد ذلك ، وإذا علمنا أن بعض دروسه كان يتلقاها في المساجد مثل مجلس أبي سعيد مولى الحاجب جعفر في المسجد الجامع بقرطبة ،

(1) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص 263 ؛ وانظر الذهبي ، تاريخ الإسلام ، دار الغد العربي ، القاهرة ، ط 1 ، 1996م ، 35/11 .

(2) أنظر : ياقوت ، معجم الأدباء ، 12/241، 240 ؛ الذهبي ، تذكرة الحفاظ ، دائرة المعارف الكائنة في الهند ، ط 1 ، 1334هـ ، 3/325، 326 ؛ بالثيا ، تاريخ الفكر الأندلسي ، ص 214 ، 215 ؛ سعيد الأفغاني ، ابن حزم الأندلسي ورسالته في المفاضلة بين الصحابة ، دار الفكر العربي ، بيروت ، 1389هـ / 1969م ، ص 33، 32 ؛ الطاهر مكي ، دراسات عن ابن حزم ، ص 67 ؛ عبد اللطيف شرارة ، ابن حزم ، ص 63، 64 ؛ عبدالرحمن الحجى ، أندلسيات ، دار الإرشاد ، ط 1 ، 1388هـ / 1969م ، ص 123، 124 .

ومجلس الهمداني بمسجد القمري بالجانب الغربي منها والذي حضره وحدث عنه سنة 401هـ/1010م⁽¹⁾، ومن البدهي أن بعض الصلوات كانت تدركه في المسجد فيصلبها أو على الأقل يرى الناس يصلون فيتعلم منهم إن لم يكن يعلم، فضلا عن أن أول دروس الفقهاء والمحدثين هي الطهارة والصلاة، ولا بد أن يكون قد تعلمها وأتقن دراستها مما يجعله يعلم وقت الكراهية من غيره.

الثاني: أن والد ابن حزم الذي كانت تعقد المجالس العلمية في قصره. من المحال أن يدع ابنه دون أن يرعاه بالثقافة الإسلامية، خاصة إذا علمنا مكانته العلمية كما سبق.

الثالث: أن ابن حزم كان قد صلى في ألوف الناس صلاة الجنازة على هشام المؤيد عندما أشيع أنه مات بعد حجه سنة 399هـ/1008م، وجرىء برجل يشبهه فكفن وصلى عليه، ثم ظهر المؤيد بعد ذلك بسبعة أشهر⁽²⁾، وهذه الصلاة كانت وهو في الخامسة عشر من عمره، حيث كان مدركا لصلاة الجنازة التي لا تصل إلا من وقت لآخر، فكيف يجيدها ولا يجيد باقي الصلوات الأخرى الفروض منها والنوافل.

الرابع: أن ابن حزم جادل إسماعيل بن النغيلة اليهودي سنة 404هـ/1013م أعلم اليهود وأجلهم في عصره حول بعض مسائل التوراة وخطأه بالحجة والبرهان⁽³⁾، وكان سن ابن حزم - آنذاك - دون العشرين، ومن المحال أن يكون قد أحاط بالديانة اليهودية حتى يخطيء إمامها في عصره، ولا يدري كيف يجبر صلاة من الصلوات، أو يخطيء في الوقت الذي تجوز فيه الصلاة أو لا تجوز.

الخامس: أن الرواية الأولى فيها أن ابن حزم تتابعت قراءاته ثلاث سنوات، ثم بدأ المناظرة، أي وهو في التاسعة والعشرين من عمره، وهذه ينقضها رواية عمر بن واجب التي

(1) ابن حزم، طوق الحمامة، دار ابن خلدون، ص 164، 165.

(2) ابن حزم، الفصل، 1/76.

(3) ابن حزم، الفصل، 1/178.

جاء فيها أنه ناظر ببلنسية أحسن مناظرة (1)، وكان ذلك في عام 408هـ/1017م، حيث كان سن ابن حزم أربع وعشرين عاما، مما يؤكد أن مطالعته بدأت قبل هذا التاريخ بكثير.

السادس: أن الرواية الأولى فيها أن ابن حزم لم يعرف الموطأ إلا وهو في السادسة والعشرين من عمره، وهذا من أمحل المحال وأمر ظاهر البطلان، وليس أدل على ذلك أنه روى الموطأ عن شيخه ابن الجصور المتوفى في العام 401هـ ودرسه على يديه وكان عمره بين الخامسة عشر- والسابعة عشر-، وكذا درسه أى الموطأ وعلم الفقه على يد شيخه الإستجى المتوفى في العام 406هـ وكان عمره لا يزيد عن اثنتين وعشرين عاما، قبل أن يرويه عن شيخه ابن دحون المتوفى في العام 431هـ.

ومن ثم يتبين من خلال العرض السابق بطلان هاتين الروايتين.

وقد تعددت المصادر التى شكلت فكر ابن حزم وثقافته ما بين بيئة أثرت في توجيهه الفكرى، وشيوخ سمع منهم سماعا جما، ومجالس علمية وأدبية، ورحلات من مدينة لأخرى بالأندلس، وكتب متنوعة في شتى ضروب المعرفة، وسوف نتحدث عن كل مصدر من هذه المصادر مظهرين المعرفة الثقافية التى ألم بها ابن حزم، وبرز وسط العديد من الذين ناصبوه العداء كعلم بارز شغل أهل عصره ومن تلاهم بفكره الأصيل. في حين أصبح خصومه في طى النسيان ولا ذكر لهم.

ويأتى في مقدمة هذه المصادر البيئة التى نشأ فيها وأحاطت به، إذ شهدت الأندلس في عصره نهضة فكرية في شتى المعارف الثقيلة والعقلية فالفقهاء ذوو الآفاق الواسعة كانوا أدباء وشعراء ومؤرخين، ولم يقتصرُوا في دراساتهم على المذاهب الفقهية لا يعدونها، ومن هؤلاء أحمد بن الجصور، ومسعود بن سليمان بن مفلت، وأحمد بن محمد الطلمنكى، وعبدالله بن محمد بن يوسف الأزدي المعروف بابن الفرضي (2)، كما أن حركة الترجمة التى ازدهرت في

(1) الذهبى، سير أعلام النبلاء، 18/191؛ وعمر بن واجب ابن أحد علماء المالكية، ولم نعثر له على ترجمة فيما بين أيدينا من مصادر.

2 عنهم وعن غيرهم من مشايخ ابن حزم أنظر كتابنا ابن حزم الظاهري وأثره في المجتمع الأندلسي، ص 341-346.

المشريق آتت أكلها في الأندلس في آخر القرن الثالث والرابع الهجريين ، ثم كان الفلاسفة الأندلسيون . بعد ذلك ومنهم ابن حزم الذى نهل من هذا ينبوع ، وتأثر به ، وليس أدل على ذلك من كتابته في الفلسفة والمنطق ، فضلا عن أسلوبه الجدل في الحوار والمناقشة (1) . كما أن معرفة الأندلس للمذاهب والفرق الإسلامية كانت فرصة لابن حزم في الإطلاع عليها ، والانتقال من المذهب المالكي إلى الشافعي بعد مطالعة كتبه ، ثم الانتقال إلى الظاهري والثبات عليه بعد الاقتناع بأسسه وأصوله ، كما طالع كتب الفرق الإسلامية من خوارج وشيعة ومرجئة ومعتزلة ، وأظهر ما فيها من أخطاء وشطحات . كما أن ظاهرة الاختلاط بين اليهود والنصارى والمسلمين كانت أحد الأسباب التى دفعت ابن حزم لمطالعة كتب الديانتين اليهودية والنصرانية والنظر فيها ، ثم مناظرة أتباعها وإظهار ما هم عليه من الضلال (2) ، وكان لازدهار العلوم العقلية خاصة الفلك والطب والصيدلة أثر على ابن حزم في توجهه لدراساتها دراسة متقنة حتى أنه توصل إلى كروية الأرض ، وإلى نظرية الجزىء الذى يتجزأ إلى ما لانهاية ، ونظرية النسبية التى سبق بها أينشتين بقرون (3) ، فضلا عن تصنيفه في الطب وممارسته له مما حدا بابن كثير أن يصفه بقوله : " كان أديبا طبييا شاعرا فصيحاً " (4) . كما كان لاهتمام حكام الأندلس بالحركة العلمية ومراكزها دور في إذكاء فكره وإثرائه خاصة مكتبة الحكم المستنصر- التى تردد عليها في حادثة سنة قبل أن تبدد ويبيع أكثرها أثناء حصار البربر لقرطبة سنة 401هـ / 1011م ، واستفاد منها في كتبه ومصنفاته (5) ، وكان لطبيعة الأندلس بجبالها الرائعة ورياضها الفيحاء ومروجها الخضراء أثر كبير عليه إذ استمد من ذلك صفاء الفكرة ودقة الحس وإرهاق الذوق ، والمطالع لكتابه (طوق الحمامة) يلمس ذلك جليا ، كما أن التقليد الذى درج عليه مالكية الأندلس لإمامهم

(1) محمد أبوزهرة ، ابن حزم ، ص 110 .

(2) أنظر : الفصل ، 1/ 323-323 .

(3) نفسه ، 1/ 352-361 ، 3/ 273-287 .

(4) أنظر : البداية والنهاية ، 12/ 569 .

(5) أنظر : جمهرة أنساب العرب ، ص 88 ، 310 ، 399 ، 408 .

وتلاميذه دون اجتهاد أو رد للكتاب والسنة كانت من الأسباب التي دفعت ابن حزم إلى الاجتهاد والمعارضة بالحجة ورفض كل قول لا يستند على برهان .

وتأتى الشيوخ في المرتبة الثانية كأحد المصادر الهامة التي كونت فكر ابن حزم
وأصقلته ، إذ أنه سمع سماعاً عاماً عن معظم مشايخ الأندلس في شتى التخصصات من حديث وفقه وفلسفة ومنطق وطب وتاريخ ولغة وفرنق وديانات (1) ، وقد أسلفنا أن أول شيخ سمع عليه هو أحمد بن الجصور وكان قبل الأربعمائة ، وقد قرأ عليه كتاب تاريخ الرسل والملوك لمحمد بن جرير الطبري ، وروى عنه موطأ مالك ، ومدونة سحنون ، ومسند ابن أبي شيبة ، وفقه أبي عبيد القاسم بن سلام ، ومسند عبد بن حميد (2) ، وهكذا درس ابن حزم على يديه ثلاثة علوم في آن واحد هي التاريخ والفقه والحديث ، وكان لا يزال دون الخامسة عشر- من عمره ، وبالرغم من ذلك كان شغله الشاغل في تلك الفترة هو علم الحديث الذي حصله من كل علمائه المشهورين بقرطبة ، ومنهم عبدالرحمن بن محمد بن أبي زيد الأزدي العتكي ، وأحمد بن محمد الطلمنكي ، والمهلب بن أحمد بن أسد التميمي ، وأبوسليمان داود بن يحيى المصري ، وعبدالله بن محمد المعروف بابن الفرضي ، الذي تأثر به ابن حزم في علم الجرح والتعديل ، وسائر علوم الحديث ، وأبوبكر بن عبدالرحمن بن مسعود بن موسى القرطبي ، وعبدالرحمن بن عبدالله بن خالد الهمداني ، وعبدالله بن ربيع المعروف بابن بنوش ، وحام بن أحمد الأطروش (3) .

(1) أحصيت لابن حزم سبعين شيخاً ، وعنهم أنظر كتابنا ابن حزم الظاهري وأثره في المجتمع الأندلسي ، ص 341-346 .

(2) الحميدى ، جذوة المقتبس ، 1/172، 173، 181 ؛ الضبي ، بغية الملتبس ، ص 155، 154 ، ترجمة 336 ؛ سالم يفوت ، ابن حزم ، ص 45 ، 46 .

(3) أنظر : ابن حزم ، الفصل ، 1/359 ؛ رسالة في فضل الأندلس ، ص 180 ؛ طوق الحمامة ، دار ابن خلدون ، ص 164 ؛ الأصول والفروع ، ص 401 ؛ حجة الوداع ، تحقيق ممدوح حقي ، دار اليقظة العربية ، (د.ت.) ، بيروت ، ط 2 ، 1966م ، ص 59 ، 61 ، 62 ، 94 ؛ المحلى ، تحقيق عبدالغفار سليمان ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1408هـ/1988م ، 5/23 ، 53، 54، 32، 24 ؛ سالم يفوت ، ابن حزم ، ص 46-51 .

وتجدر الإشارة إلى أن السبب في إقبال ابن حزم على الحديث هو رواج هذا العلم بالأندلس وكثرة علمائه حتى أن الطلبة كانوا يخرجون في جماعات لطلبه من شيوخه (1)، أضف إلى ذلك أن مذهب مالك كان قائما على الحديث، وكتابه الموطأ خير دليل على ذلك، حيث سلك في جمعه مسلك المحدثين، ومن ثم فقد اهتم بعض المالكية بعلم الحديثه وتدريسه، وهؤلاء كانوا - في جملتهم - مشايخ لابن حزم، وقد ذكرنا بعضهم سابقا، وابن حزم باعتباره مالكي المذهب في تلك المرحلة، وتلميذا هؤلاء الشيوخ كان لزاما عليه أن يتبع منهجهم في الدراسة والتعليم حيث الاهتمام بالحديث وعلومه، وكان لإقبال ابن حزم على الحديث في تلك المرحلة أن أثربت نفسه حبه، ومن ثم ازداد إعجابا بالمحدثين ومنهجهم في الاعتماد على النصوص - القرآن والسنة - ونبذ القول بالرأى الذي كان أحد أصول مذهب مالك، مما دفعه إلى نبذ المذهب المالكي والانتقال إلى الشافعي على ما سيتضح، ثم التمسك بالمذهب الظاهري الذي يعزز النصوص ولا يعول على غيرها من قياس واستحسان ومصالح مرسلة.

وبعد أن تطلع ابن حزم في الحديث اتجه إلى الفقه يحقق فيه ما حققه في الحديث آملا أن يصلح حال المجتمع الذي انغمس في الشهوات والملذات بفعل فتاوى الفقهاء التي اعتمدت على الرأى والقياس دون الرجوع إلى نصوص الشرع، فدرس الفقه المالكي على أيدى فقهاء المالكية في عصره؛ مثل عبدالله بن يحيى بن أحمد بن دحون الذي كان عليه مدار الفتيا بقرطبة (2)، وأبوا الحسين بن على الفاسي الذي ترك أثرا واضحا على ابن حزم حتى اعترف بفضله قائلا: " ما رأيت مثله جملة علما وعملا ودينا وورعا فنفعنى الله به كثيرا، وعلمت موضع الإساءة وقبح المعاصي " (3)، وعبدالله بن عبدالرحمن بن جحاف قاضى

(1) ابن حزم، طوق الحمامة، دار الهلال، ص 161.

(2) ابن حزم، طوق الحمامة، ص 266؛ وانظر. Asin placios, Abenhazam, T.1,P.108.

(3) أنظر: طوق الحمامة، دار ابن خلدون، ص 155.

بلنسية الذى وصفه ابن حزم بقوله " هو من أفضل قاض رأيته دينا وعقلا وتعاوننا ، حفظه وافر من العلم " (1)

لقد كان لدراسة ابن حزم الفقه فى بادىء أمره على هؤلاء الشيوخ وقراءته لكتب المذهب أثر كبير على فكره ، حيث تأثر ببعض المسائل الفقهية على مذهب مالك ، ودونها فى فقهه الظاهري ، مثال ذلك (الحكم بجزاء واحد على القارن والمعتمر والمتمتع فى حل أو حرم إذا أصابوا صيدا ، ويكون مثل ما قتل من النعم ، والأكل من كل ما قتله الجارح المعلم . سواء علمه وثنى أو مسلم ، وكذا الصيد بسهم صنعه وثنى أو مسلم ، وتقسيم أربعة أخماس الغنيمة الباقية بعد الخمس على من حضر- الموقعة أو الغنيمة على النحو التالى : لصاحب الفرس ثلاثة أسهم : له سهم ولفرسه سهمان ، وللراجل وراكب البغل والحمار والجمل سهم واحد) وغير ذلك مما هو مدون فى فقهه الظاهرية (2)

وبعد أن درس ابن حزم المذهب المالكي نراه يتحول عنه إلى المذهب الشافعى ، وكان ذلك قبل سنة 406هـ / 1015م وهى السنة التى توفى فيها شيخه أبو القاسم سلمة بن سعيد الأنصارى الذى درس عليه المذهب الشافعى وتأثر به (3) . وتكمن أسباب تحوله إلى المذهب الشافعى فى الآتى:-

(1) نقلا عن الذهبى ، تاريخ الإسلام ، 235/11 .

(2) أنظر : المحلى ، مسائل رقم 833 ، 886 ، 950 ، 1093 ، لقد اتفق العلماء على تقسيم خمس الغنيمة اعتمادا على قوله تعالى (واعلموا أن ما غنمتم من شىء فإن لله خمسة وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) الأنفال آية 41 . أما الأربعة أخماس الأخرى فقد اختلفوا فيها حسب فهمهم للأحاديث الواردة بخصوص هذا الشأن . فقد ذهب مالك إلى ما ذكرناه بأعلاه وتبعه فى ذلك الشافعى وداود الظاهري ، ومن ثم فإن تبنى ابن حزم لرأيه فى تقسيم الأربعة أخماس يرجع إلى أيام كان مالكي المذهب ، وذلك لتقدم مالك على كل من الشافعى وداود من الناحية الزمنية ، ثم إن ابن حزم قد اطمأنت نفسه لهذا رأى عندما علم أنه مذهب الشافعى وداود ، وقد ذهب أبو حنيفة إلى أن للفراس سهمان له سهم ولفرسه سهم ، وللراجل وراكب الحمار والبغل والجمل سهم ، وقال أحمد للفراس ثلاثة أسهم ، ولراكب البعير سهمان ، ولغيرهما سهم . أنظر نفس المصدر ، 392،393/5 .

(3) سالم يفوت ، ابن حزم ، ص 51 .

أولاً : الحرية الفكرية التي كان يتطلع إليها ابن حزم ، فضلا عن نفوره من التقليد الذي كان سمة المذهب المالكي في عصره حتى أن بعض علماء المذهب أنفسهم كابن عبد البر انتقدوا ذلك (1)

ثانياً : الإعجاب الذي كان يكنه ابن حزم للشافعي ، وذلك لتمسكه بالنصوص واعتباره أن الفقه نص ، فضلا عن حملته الشديدة على من أفتى بالاستحسان والمصالح المرسلة (2).

ثالثاً : قصور المذهب المالكي عن أن يفى لابن حزم بما وجده في المذهب الشافعي من تأصيل فقهي واستنباط عقلي يعتمد على النصوص ، فضلا عن الحوار والجدل المحمود.

رابعا : فقدان ابن حزم لأسرته خاصة والده الذي كان أحد رجال الدولة ، والمتمذهبين بمذهبها الرسمي وهو المالكي ، ثم النكبات السياسية التي وقعت به وبأسرته ، والتي ألجأته للهجرة من قرطبة إلى غيرها من مدن الأندلس . كل هذا كان له أثره عليه في أن يترك كل رمز يدينه من الحياة أيام السلطة التي تنكرت له ولأسرته . فكان التحول إلى مذهب جديد يخالف المذهب الرسمي للدولة وهو الشافعي .

خامسا : التحول الفقهي لدى الشافعي في إصدار الأحكام ، إذ أنه غير الكثير من آرائه التي قال بها في العراق عندما أتى إلى مصر . . فلعل هذا كان مبررا لابن حزم في تحوله من المذهب المالكي إلى الشافعي .

وتجدر الإشارة إلى أن دراسة ابن حزم للمذهب الشافعي تركت أثرا عليه في بعض المسائل الفقهية التي رجح فيها رأى الشافعي مثل (إيجابه القطع على من سرق المصحف ، والجلد أربعين لشارب الخمر ، وإباحة النكاح الذي يستكتم فيه الشاهدان ، ورفضه أن يزوج الأب ابنته الصغيرة بأقل من مهر مثلها) (3) قد ظل ابن حزم متبعا للمذهب الشافعي ما

(1) أنظر : جامع بيان العلم ، ص 533 . ابن عبد البر هو صاحب ابن حزم ، وكان ظاهري المذهب ، ثم تحول إلى المالكي . عنه أنظر الملاحق .

(2) محمد أبوزهرة ، تاريخ المذاهب الإسلامية ، ص 541 ، 542 ، وانظر ، Asin placios , Abenhazam . T.1,P.129 ,

(3) أنظر : المحلى ، مسائل 1830 ، 1832 ، 1835 ، 2277 ، 2291 .

يقرب من اثنتى عشرة سنة ، ثم تحول عنه إلى المذهب الظاهري الذى أخذه عن شيخه أبى الخيار مسعود بن سليمان القرطبي ، وتأثر به فى نبذ التقليد والدعوة إلى الاجتهاد حتى عده من الأئمة المجتهدين (1).

أما بخصوص علم التاريخ فقد سبق أن ذكرنا أن ابن حزم درسه لأول مرة على يد شيخه أحمد بن الجسور ، وكان لا يزال فى الخامسة عشر- من عمره . ثم تابعت دراساته واهتماماته بهذا العلم فأخذه عن مجموعة من الشيوخ بعد ابن الجسور منهم عبدالرحمن بن محمد بن أبى زيد العتكى ، وعبدالله بن يوسف بن الفرضى ، الذى درس عليه كتبه التاريخية خاصة تاريخ علماء الأندلس ، وأبيعبدالله محمد بن عمرو بن مضاء ، وأبيالمحيا ملهم بن موازن وغيرهم (2) ، وقد استفاد من هذا العلم فى تمحيص أسانيد الأحاديث والروايات التاريخية ، والدفاع عنه ضد المنتقسين منه ، ويمكن أن نرجع اهتمام ابن حزم بالتاريخ فى تلك المرحلة إلى الآتى :-

أولاً : ازدهار تدريس التاريخ آنذاك لارتباطه بالعلوم الشرعية ، فقد كان يستفاد منه فى معرفة تاريخ الرواه ومواطنهم وأنسابهم ، ومن ثم التعرف على صادقيهم من كاذبيهم . من خلال فحص ما نقل عنهم من روايات ، وذلك مثل ما روى عن سهيل بن ذكوان السندى أنه لقي عائشة رضى الله عنها بواسط ، وهذا كذب لأن عائشة توفيت سنة 58هـ/678م قبل أن يخط الحجاج بن يوسف الثقفى مدينة واسط بزمان (3) ، كما كان يستفاد منه فى التفسير من

(1) أنظر : الإحكام فى أصول الأحكام ، دار الحديث ، القاهرة ، ط2 ، 1413 هـ / 1992م ، 95/2 .

(2) أنظر : ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص313،312 ؛ جبهة أنساب العرب ، ص287 ؛ رسالة فى فضل الأندلس ، رسائل 180/2 ؛ الضبى ، بغية الملتمس ، ترجمة 225 ؛ سالم يفوت ، ابن حزم ، ص46 .

(3) لمزيد من التفاصيل عن ذلك أنظر محمد بن عبدالرحمن السخاوى ، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، تحقيق محمد عثمان الخشت ، مكتبة ابن سينا ، القاهرة ، 1409هـ/1989م ، ص21-27 . وواسط مدينة بناها الحجاج سنة 86هـ/705م فى عهد عبدالملك بن مروان ، وسماها واسط لتوسطها بين البصرة والكوفة والأهواز والمدائن . أنظر ياقوت ، معجم البلدان ، دار الفكر ، بيروت ، (د.ت) ، 348/5 ، وعن الحجاج أنظر ابن كثير ، البداية والنهاية ، 156/9-162 .

خلال اهتمامه بأسباب النزول التي لا تفهم آيات القرآن إلا بها . أضف إلى ذلك أهميته بالنسبة للفقهاء حيث الاستناد على بعض الوقائع التاريخية التي تؤيد الفتوى وتؤكددها .

ثانيا : أهمية التاريخ في معرفة بعض الأنساب التي يعرف بها الحق من الباطل . كمعرفة أن الخلافة لا تجوز إلا لقرشى النسب ، ومعرفة أنساب الأنصار لنحسن إليهم . كما أوصى الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومعرفة من تحرم عليهم الصدقة من آل محمد صلى الله عليه وسلم ، ومعرفة من يحل له الميراث ومن لا يحل (1).

ثالثا : دعوة القرآن والسنة في غير موضع إلى الاهتمام بالتاريخ وأخذ العبرة والعظة منه ، ومن ثم فقد جعل ابن حزم العلم بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم من الشروط التي لا يحل للمفتي أن يتقلد الإفتاء بدونها (2).

رابعا : تجريد التاريخ مما علق به من شكوك وملابسات . خاصة وقد توافرت في ابن حزم شروط المؤرخ الحصيف من عدالة وضبط وعلم بطرق النقل وأحوال الناس ومقاديرهم ، ومعرفة مراتب العلوم ، وعدم المحاباة المفضية للعصبية (3).

خامسا : محاولة ابن حزم أن ينشر فكره ومنهجه بكل الطرق . خاصة وأنه طبق منهجه الظاهري على التاريخ عندما اعتبر أن النقل هو الأساس في دراسة التاريخ قبل العقل ، ومن ثم صنف ابن حزم في معظم فروع التاريخ من تراجم وطبقات وأنساب وسيرة ذاتية ، وتاريخ إقليمي ، وسيرة نبوية ، وتأريخ للفرق الإسلامية واليهودية والنصرانية (4) .

سادسا : تأثير والده أحمد بن سعيد الذي كانت له اليد الطولى في تشكيل ثقافته ابنه التاريخية ، حيث كان يحدثه بالأحداث المهمة التي وقعت في عصره بحكم شخصه ومكانته في الدولة ، وإلى مثل هذا يشير ابن حزم بقوله : " حدثني وهزني الوزير والدي نصر الله وجهه " (5)

(1) ابن حزم ، جبهة أنساب العرب ، ص 80-88 .

(2) أنظر : الإحكام ، 118/2 .

(3) السخاوي ، الإعلان ، ص 80-88 .

(4) عبدالحليم عويس ، ابن حزم ، ص 161، 160، 202-220 .

(5) أنظر : نطق العروس ، رسائل 94/2 فقرة 76 .

وإلى جانب التاريخ فقد درس ابن حزم اللغة العربية وآدابها على غير واحد منهم أبو سعيد مولى الحاجب جعفر الذى تلقى عنه الأدب الجاهلى حيث قرأ عليه قصيدة طرفة بن العبد وشرحها (1)، وحماد بن أحمد الأطروش الذى تلقى عنه الشعر والبلاغة إلى جانب الحديث، وعبد العزيز بن محمد بن عبد العزيز الذى تلقى عنه الشعر، وأبو الحسن على بن محمد صاحب كتاب (التشبيهات من أشعار أهل الأندلس) (2)، وأبو عبدة حسان بن مالك الذى ترك أثرا واضحا على ابن حزم فى اللغة حتى وصفه بقوله "وكان أذكر من لقينا للغة مع شدة عنايته بها، وثقته وتحريه فى نقلها" (3)، وكان من أسباب اهتمام ابن حزم بدراسة اللغة فى تلك المرحلة أمران :-

أولهما : تأثره بوالده الذى كان ينهى عن اللحن فى اللغة ويتعجب منه .

ثانيهما : المنهجية الظاهرية التى تعتمد على اللغة فى التفسير الظاهري للنص إذا لم توجد نصوص آخر تصرفه عن ظاهره، وكان لدراسته للغة وإتقانه لها أثر كبير فى أن جعلها أحد مصادر مذهبه الظاهري إذا توقف النص.

كما درس ابن حزم الفلسفة والطب على يد محمد بن الحسن الكنانى، الذى ترجع معرفته به لمجلس المنصور بن أبى عامر وابنه المظفر، إذ أن والد ابن حزم كان وزيرا لكل منهما فى الوقت الذى كان محمد بن الحسن الكنانى طبيبا لهما (4)، وقد تأثر ابن حزم به فى الفلسفة والمنطق وأثنى على براعته ومصنفاته فيهما، كما درس الفلسفة والمنطق على يد ثابت بن محمد الجرجاني العدوى المكنى بأبى الفتوح ووصفه بقوله : " ما رأيت فى خلق الله عز وجل أعلم بهذا العلم منه ولا أحفظ له منه ولا أوسع فيه منه " (5)، وكان لدراسته هذين

(1) ابن حزم، طوق الحمامة، ص 158.

(2) الحميدى، جذوة المقتبس، 2/455 ترجمة 643؛ وانظر، الضبى، بغية الملتبس، ترجمة 194؛ الذهبى، تاريخ الإسلام، 11/290؛ إحسان عباس، رسائل ابن حزم، 2/223.

(3) أنظر : الإحكام، 1/422.

(4) الذهبى، مصدر سابق، 11/261.

(5) نقلا عن إحسان عباس، رسائل ابن حزم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1، 1983م، 4/39. وعن الجرجاني أنظر الملاحق.

العلمين أثر في تطويره المنطق لخدمة الشرع من خلال استخدامه في استنباط الأحكام الفقهية من النصوص الشرعية سابقا بذلك أبا حامد الغزالي الذي احتذى حذوه فاستمد الأمثلة المنطقية من الفقه كما هو واضح في كتابه المستصفى ، وبذلك فابن حزم سبق في هذا المضمار وليس الغزالي كما يشاع ، كما استفاد من المنطق في التأويل الذي استخدمه في باب الأصول وآيات الصفات وأحاديثها (1) .

ويلى الشيوخ المجالس العلمية والأدبية التى لعبت دور مهما في تشكيل فكر ابن حزم وثقافته ، ومنها مجلس والده الوزير الذى كان يعقد فى القصر- ، وكان حافلا بشخصيات العصر من شعراء وأدباء ولغويين وفقهاء ، وقد أسلفنا أن والده كان يناقش فى مجلسه مشائل الفقه ويستمع إلى نصيح الفقهاء ومدح الشعراء ويعترض على من يلحن فى اللغة . ووسط هذا الجو العلمى شب ابن حزم واستمع إلى الروايات المختلفة والأحاديث الدائرة بين المجتمعين ومنهم أحمد بن جبرون ، ومحمد بن إسحاق الذى تأثر به ابن حزم وعبر عن ذلك بقوله : " سمعته يقول لوالدى الوزير على سبيل الوعظ احرص على أن لا تعمل شيئا إلا بنية فإنك تؤجر فى جميع أعمالك ، وما زلت منذ سمعت ذلك منتفعا به " (2) ، كما حضر- مجالس الرؤساء كمجلس المظفر بن أبى عامر ، وكانت أول مرة له فيه يوم عيد الفطر سنة 396هـ/1005م ، حيث استمع إلى الشعراء والأدباء ، خاصة الشاعر المشهور أبى العلاء صاعد (3) ، وكان والده هو الذى يدفع به إلى مثل هذه المجالس لتشكيل فكره الثقافى والسياسى معا ، والاتصال بأبناء الطبقة الحاكمة ، وقد أثمرت هذه السياسة ، وأصبح هذا

(1) أنظر : الفصل ، 2/3-12 ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، 569/12 . والغزالي هو محمد بن محمد ولد سنة 450هـ/1058م ، وتفقه على إمام الحرمين وبرع فى علوم كثيرة ، ودرس فى المدرسة النظامية ببغداد ، وهو ابن أربع وثلاثون سنة توفى سنة 505هـ/1111م لمزيد من التفاصيل أنظر ابن كثير ، البداية والنهاية ، 671،672/12 .

(2) نقلا عن الضبى ، بغية الملتبس ، ص60 ؛ وانظر ، عبدالكريم خليفة ، ابن حزم ، ص96،97 . لم نعثر على معلومات لكل من ابن جبرون وابن إسحاق غير ما ذكرنا .

(3) الحميدى ، جذوة المقتبس ، 1/375 ترجمة 510 . وصاعد أصله من بغداد ، برع فى اللغة العربية ، ودخل الأندلس فى عهد هشام المؤيد فأكرمه الحاجب المنصور ، وهو صاحب كتاب الفصوص الذى ألقاه المنصور فى النهر لما ظهر كذبه ، توفى بصقلية سنة 417هـ/1026م أنظر الذهبى ، تاريخ الإسلام ، دار الغد العربى ، القاهرة ، ط1 ، 1996م ، 11/223 .

المجلس أحد المصادر التي أصقلت فكره الأدبي إذ نعلم أن (ضنا) العامرية إحدى بنات المظفر بن أبي عامر كلفت ابن حزم بأن ينظم لها أبياتا شعرية لتغني بها (1)، وهذا يدلنا على أمرين:-

الأول: مدى الارتباط والصلة بين ابن حزم والحاجب المظفر، حتى أنه أصبح له كلام مع بناته مع ما كان من تشدد في تلك الفترة على نساء الرؤساء وبناتهن، ومنعهن من مجالسة الأجانب الذين يدخلون البيت.

الثاني: الشهرة الأدبية التي نالها ابن حزم في قصر المظفر، وهو لا يزال دون الخامسة عشر من عمره، حيث طلبت منه إحدى بنات المظفر أن ينظم لها أبياتا شعرية تغني بها. ومن هذه المجالس مجلس أبي عبدالله محمد بن عبدالله بن قاسم صاحب البونت، ومجلس أحمد بن رشيق صاحب ميورقة اللذان كانا عامران بأصناف الآداب والعلوم، ولم يقف الأمر بابن حزم عند حد الاستماع والإلمام بما يدور في هذه المجالس فحسب. بل نراه يشارك فيها بفاعلية، وليس أدل على ذلك من تصنيفه رسالته في فضل الأندلس عندما ارتأى صاحب البونت ذلك (2).

وإلى جانب هذه المجالس فقد أثرت الرحلات تأثيرا قويا على فكر ابن حزم وثقافته، وقبل الشروع في الحديث عن ذلك لابد من تناول أسباب الرحلة بالنسبة للعلماء، لنقف على

(1) ابن حزم، طوق الحمامة، ص 251. لم اهتم إلى ترجمة لضنا فيما بين يدي من مصادر.

(2) أنظر: رسالة في فضل الأندلس، رسائل 172/2؛ ابن الأبار، الحلة السراء، 128/2؛ والبونت قرية من أعمال بلنسية، وميورقة جزيرة فتحها المسلمون سنة 290هـ/902م تطل على البحر الزقاقى ومدينة بجاية من جهة القبلة لمزيد من التفاصيل أنظر الحميري، الروض المعطار، ص 56، 188. ومحمد بن قاسم تولى الحكم بالبونت بعد وفاة والده عبدالله سنة 421هـ/1030م، وتلقب بيمين الدولة، وكان يقرب الصالحين منه، وبقي واليا حتى سنة 434هـ/1042م أنظر: ابن حزم، رسالة في فضل الأندلس، ص 172، هامش (2)، وأحمد بن رشيق كان أبوه من موالى بنى شهيد، نشأ في مرسية، وانتقل لقرطبة، وطلب الأدب فبرز فيه، وبرز في صناعة الرسائل، مع حسن الخط، وشارك في سائر العلوم، وقدمه مجاهد العامري على كل من في دولته وولاه ميورقة لمزيد من التفاصيل أنظر: ابن الأبار، الحلة، 128، 129/2.

الأسباب التي دفعت ابن حزم لها هل هي أسباب طبيعية كغيره من العلماء أم أنه كان منفردا حتى في رحلاته وتنقلاته ، وتمثل هذه الأسباب في الآتي :-

أولا : اتساع الدولة الإسلامية التي امتدت من الصين شرقا إلى المحيط الأطلنطي غربا .

ثانيا : وصف الأقاليم والعناية بها ، والتي اعتبرت جزءا من أخبار الفتوح والمغازي . تمهيدا لتطبيق أحكام الشريعة وتسهيلاً لمهمة الولاة .

ثالثا : الارتحال لجمع الحديث من أقوال الرواة والنقلة .

رابعا : الباعث الديني المتمثل في تأدية فريضة الحج بيت الله الحرام ، حيث يلتقى الحاج بمعظم علماء وفقهاء الأمصار .

خامسا : الباعث الاقتصادي المتمثل في التجارة التي يجنى الرحالة من ورائها النفع والكسب المادي (1) .

وبالنظر إلى هذه الأسباب ورحلات ابن حزم نجده لم يكن فيها خاضعا لهذه الأسباب . حتى الباعث الديني نفسه لم يتحقق لديه بالخروج إلى بيت الله الحرام وقصده بالحج . ولاشك أن ذلك راجع إلى الظروف القاسية التي أحاطت به من اضطهاد وتنكيب سياسي ومصادرة لفكره وآرائه . ومع ذلك فلا يمكن التصديق بأن ابن حزم لم يسقط هذا الفرض عن نفسه بتأديته . فلعله أناب من يضطلع به عنه خاصة وهو صاحب الرأي القائل : "بأن من وجد من يطيعه فيحج عنه ويعتمر بأجرة أو بغير أجرة فقد استطاع السبيل الذي يجب به الحج" ، في حين أن المالكية لم يروا ذلك استطاعة ولم يوجبوا بذلك حجاً (2) .

لقد كانت رحلات ابن حزم إجبارية نتيجة لظروف سياسية ولم تكن بإرادته ، وبالرغم من ذلك فقد حاول أن يستغلها لصالحه وكأنها اختيارية ، ومن ثم أفادته كثيرا في التعرف على ثقافات جديدة وعلماء جدد وأسلوب جديد في الجدل والمعيشة ، وهو نفسه يعترف بأثر هذه الرحلات أو قل النكبات السياسية على كثرة مؤلفاته وسيلان ذهنه بقوله : "

(1) أحمد رمضان ، الرحلة والرحالة المسلمون ، دار البيان العربي ، جدة ، (د.ت) ، ص 7-14 .

(2) أنظر : المحلى ، 27/5 مسألة 815 .

وما ألفنا كتابنا هذا - يعنى التقريب لحد المنطق - وكثيرا من كتبنا إلا ونحن مغربون مبعدون عن الوطن والأهل والولد مخافون مع ذلك فى أنفسنا ظلما وعدوانا لا نسر هذا بل نعلنه " (1). وتجدر الإشارة بداية إلى أن رحلات ابن حزم وتنقلاته كانت كلها بين مدن الأندلس ولم يغادرها إلى سواها ، ومن ثم فما ذهب إليه البعض بأنه غادرها إلى القيروان معتمدين فى ذلك على نص أورده ابن حزم فى الطوق قائلا : " ولقد سألتنى يوما أبو عبد الله بن كليب القيروانى من أهل القيروان أيام كونى بالمدينة " (2) فهو خطأ من وجهين :-
الأول : أن كلمة المدينة فى هذا النص تحريف من الناسخ وأصلها المرية ، وقد تدارك اثنان من محققى الطوق هذا الأمر وصححا هذا التحريف (3).

الثانى : أن الكلمة لو كانت المدينة وليست المرية فالمقصود بها قرطبة ، وقد قرر ابن حزم ذلك بقوله " وكان من ولد عبادة بن الصامت (الصحابى الجليل) قوم يسكنون بالمدينة بباب العطارين عندنا بقرطبة " (4) ، ومن ذلك نقرر أن المواطن القرطبى إذا استخدم كلمة المدينة دون تحديد فالمقصود بها قرطبة .

لقد كانت أول رحلة لابن حزم خارج قرطبة مسقط رأسه إلى المرية Almeria سنة 404هـ/1013م (5) ، ويرجع ذلك إلى طبيعة الحياة الفكرية بها إذ أنها كانت مركزا للجدل والمناظرات بين الفرق الإسلامية وغيرها ، وابن حزم فى ذلك الوقت كان مغرما بالجدل ، وليس أدل على ذلك من منازلته لأعلم اليهود وأجدلهم فى نفس السنة التى رحل فيها إلى المرية كما أسلفنا القول ، ومن ثم كانت المرية أكثر مدن الأندلس ملائمة لميوله الفكرية ومتعته العقلية فى تلك المرحلة ، أضف إلى ذلك نزعة الأموية التى وجدت إشباعا لها بالمرية ، لما كان يظهره خيران صاحبها من الميل لبنى أمية فى بادىء أمره .

(1) أنظر : التقريب لحد المنطق ، رسائل 346/4 ، 347 .

(2) أنظر : ص 114 ؛ زكريا إبراهيم ، ابن حزم ، ص 39 ؛ محمد أبوزهرة ، ابن حزم ، ص 49 .

(3) أنظر تحقيق الطاهر مكى ، ص 114 ؛ إحسان عباس ، مقدمة رسائل ابن حزم ، 1/35 .

(4) أنظر : جمهرة أنساب العرب ، ص 354 .

(5) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص 247، 259 .

خرج ابن حزم في سنة 407هـ/1016م من المرية إلى حصن القصر. Aznalcaza على سبيل التغريب بعد اعتقاله على يد خيران ، بسبب ما نقل إليه بأنه يسعى للقيام بالدعوة الأموية ، وفي سنة 408هـ/1017م ترك حصن القصر إلى بلنسية بعد أن اكتسب ثقافة جديدة ووطد صلته بأهلها⁽¹⁾ ، ويرجع اتجاهه لبلنسية إلى سيطرة النزعة الأموية عليها مثلها في ذلك مثل شاطبة Gativa والبونت ، التي جذبت إليها باعتباره أحد الدعاة النشيطين والموالين لبنى أمية ، ويبدو أن ذلك هو السبب أيضا في هجرته لشاطبة والبونت ، في نفس السنة نراه يغادر بلنسية إلى غرناطة للمشاركة في صفوف المقاتلين مع عبدالرحمن المرتضى . ثم رجع إلى قرطبة سنة 409هـ/1019م⁽²⁾ ، ويبدو أن سبب ذلك هو على بن حمود الذي كان السبب في اعتقاله على يد خيران ، فلما تولى بعده أخوه القاسم بن حمود الذي كان وادعا حيث أمن الناس في عهده ، أثر ابن حزم أن يعود إلى قرطبة مسقط رأسه⁽³⁾ ، وبعد ذلك نراه في شاطبة حيث قص علينا محاربة مجاهد صاحب الجزائر الشرقية لخيران صاحب المرية ، وكان ذلك سنة 417هـ/1026م ، ويبدو أنه استوطنها قبل هذا التاريخ ، وظل بها حتى سنة 418هـ/1027م ، وهي السنة التي صنف فيها طوق الحمامة أو التي قبلها⁽⁴⁾ ، وفي سنة 422هـ/1030م أو بعدها بقليل اتجه إلى قلعة البونت في عهد صاحبها محمد بن عبدالله بن القاسم ، وكانت لهذه الرحلة أثر عليه في تزويده بطرق وأساليب جديدة في التعامل مع أصناف العلوم المختلفة كالتاريخ والحديث والفقه واللغة والبلاغة والشعر وغيرها ، كما أنها منحتة الفرصة للإسهام في تخليد ذكرى علماء الأندلس ومآثر بلدهم . حيث صنف رسالته في فضل الأندلس بهذه القلعة بناء على رغبة صاحبها .

(1) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص 247، 259 ، 261 . وحصن القصر أحد حصون بلنسية ، وكان يعرف بقصر بني خلف بسرطانية ، وبلنسية مدينة مسورة ، ولها خمسة أبواب ، وقد اطبعت بقلة الهم أنظر : العذري ، نصوص عن الأندلس ، ص 64، 18، 17.

(2) نفسه ، ص 247، 261 ، ، وشاطبة حصن من حصون مدينة بلنسية تقع شرقي قرطبة أنظر ، ابن غالب ، فرحة الأنفس ، ص 285 .

(3) ابن حزم ، ذكر أوقات الأمراء ، رسائل 2/ 200 .

(4) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص 190 ؛ وانظر Asin placios , Abenhazam , T.1 P.77

(3) ابن حزم ، الفصل ، 2/ 388 .

(4) نفسه ، 2/ 390 .

وبعد ذلك اتجه ابن حزم إلى الثغر الأعلى حيث التقى بشيخه أحمد بن محمد الطلمنكي وروى عنه مسند البزار ، واستفاد منه في الحديث ، وبعض المسائل الخلافية في الفقه خاصة حكم من مات من أطفال المسلمين والمشرّكين قبل البلوغ⁽¹⁾ ، ويمكن أن نجعل هذه الرحلة قبل سنة 429هـ/1037م ، وهى السنة التى توفى فيها شيخه الطلمنكي ، ونعرف منه أنه رحل إلى مدينة بجاية وأدرك بها إسماعيل الرعيني زعيم مذهب ابن مسرة في عصره ، واستفاد من ذلك الكثير عن المعتزلة ومبادئها⁽²⁾ ، وبعد سنة 430هـ/1038م نرى ابن حزم يحل بجزيرة ميورقة بدعوة من حاكمها أحمد بن رشيق وكانت هذه الرحلة من أعظم رحلاته ، إذ أن حاكم ميورقة أمنه على تحصيل كل ما يريده من العلوم ونشرها ، خاصة الفقه الظاهري ، ومن ثم يمكن اعتبارها نقطة الانطلاقة الكبرى للمذهب الظاهري في حياة ابن حزم . كما أن عصر الموحدين كان نقطة الانطلاقة له بعد وفاته ، وبعد وفاة أحمد بن رشيق سنة 440هـ/1048م غادر ابن حزم ميورقة إلى أشبيلية وذلك لاجتماع المالكية عليه بعد أن قدم أبو الوليد الباجي إلى ميورقة ، وانعدام النصير والمؤيد له ، ولا ندرى ما الداعي وراء حلوله بأشبيلية هل كان بها بهض أصحابه ، أم كان ذلك بدعوة من بعض أهلها ، أم أنها كانت محاولة منه لنشر فكره ومذهبه ، فالمصادر لم تمدنا بمعلومات عن ذلك . بيد أن الواضح للعيان أنه وقع عليه فيها أقصى ما يوقع بالعالم ، إذ أحرقت كتبه علانية بتحريض الفقهاء للمعتضد بن عباد حاكمها . لمهاجمته إياهم ومعارضته لأصول مذهبهم المالكي⁽³⁾ ، وفي آخر عمره نراه يتجه إلى لبلة بعد أن شعر بالحنين تجاهها وهو في سن الشيخوخة ، وظل بها إلى أن وافاه الأجل سنة 456هـ/1063م⁽⁴⁾.

(1) ابن حزم ، الفصل ، 388/2.

(2) نفس المصدر ، 390/2. لم نثر على ترجمة للرعيني ، وإنما عرض ابن حزم لبعض أقواله ومبادئه في كتابه الفصل.

(3) محمد أبوزهرة ، ابن حزم ، ص 546 ؛ وانظر سعيد الأفغانى ، ابن حزم ، ص 69، 68.

(4) ابن سعيد ، المغرب ، 355/1 . وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن ابن حزم أقام بلبله خمسا وعشرين سنة حتى وفاته . أنظر حسين مؤنس ، الحكومة الأسبانية والهيئات العلمية العربية والأوربية تحتفل بالذكرى المئوية التاسعة لوفاة ابن حزم ، مقال بمجلة العربى ، ربيع أول 1383هـ/أغسطس 1963م ، عدد 57 ، ص 22 . وهذا ليس بصحيح لأن معنى ذلك أن ابن حزم رحل إلى لبلة سنة 431هـ/1039م ، وهو لم يغادر ميورقة إلا بعد سنة 440هـ/1048م ، ومنها اتجه لإشبيلية ثم إلى لبلة حيث بقى بقريته منت ليشم حتى وافاه الأجل .

وهكذا فقد كانت لهذه التنقلات دورا مهما في إكساب ابن حزم خبرات علمية ظهرت في كتاباته بصورة جلية ما كان له أن يكتسبها لولا أنه خاض غمارها ، فقد تعرف على أصول المعتزلة ومبادئها في كل من المرية وبجاية ، وصنف طوق الحمامة بشاطبة والذي ترك أثرا واضحا في الأدب العربي والإنساني بصفة عامة ، وكتب رسالته في فضل الأندلس بقلعة البونت ، والتي تعتبر وصفا للحركة الفكرية بالأندلس في عصره ، وتشكلت أفكاره في الملل والنحل ، ومن ثم اتجه لتصنيف كتابه الموسوعي (الفصل في الملل والأهواء والنحل) ، والذي بدأه بقرطبة بعد سنة 418هـ/1027م . وكتاب (الأصول والفروع) الذي صنّفه سنة 420هـ/1029م⁽¹⁾

وإلى جانب الرحلات فقد لعبت الكتب دورا مهما في إثراء فكر ابن حزم وتنوعه ، خاصة وأنه كان مكثرا من الاطلاع والسماع معا ، حيث طالع كتباً في شتى أنواع المعرفة ، يظهر ذلك جليا لمن طالع مصنفاته . وقد أحصيت بعض ما طالعه معتمدا في ذلك على ما طبع ، وما هو معروف من كتبه والذي يشمل ثلاثة وثلاثين كتاباً ورسالة من جملة أربعمئة مصنف ، تعدادها ثمانون ألف ورقة ،⁽²⁾ ونكتفى في هذا المقام بالإشارة إلى أهم الكتب التي طالعها في كل علم من العلوم التي عرفها وأثرها على فكره ومنهجه .

(1) أنظر ، الفصل ، 1/28 ؛ الأصول والفروع ، ص 210 .

(2) يبلغ عدد الكتب المحصاة أكثر من خمسمائة واثنين وسبعين معظمها من الكتب الكبيرة التي يحتوي كل منها على عدة مجلدات ، ومن ثم فلنا أن نتخيل مجموع الكتب التي طالعها ابن حزم ، وسعة عقله الذي استوعب كل هذا المجموع مع سرعة بديته في استحضار ما تحويه ، خاصة إذا علمنا أن هذا الإحصاء يمثل 12/1 من الكتب التي طالعها . عن ذلك أنظر : ابن حزم : طوق الحمامة في الألفة والألاف ، ص 158، 122، 105، 79، 33، 32 ؛ الأصول والفروع ، ص 258، 234، 221، 194، 193 ؛ الفصل في الملل والأهواء والنحل ، 1/ 143، 145، 118، 72، 13، 246، 177، 156 ، 261، 251، 333، 263، 393، 334، 408، 403، 212، 131، 217، 213، 3/ 163، 160، 156، 131، 11، 8 ، جوامع السيرة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، (د.ت) ، ص 163، 32، 28 ، مراتب الإجماع ، ص 178، 177 ، الإحكام في أصول الأحكام ، 1/2، 599، 439، 422، 409، 276، 234، 225 ، رسائل ابن حزم ، 1/3، 2، 34 ، / 140، 132 ، 194 ؛ جمهرة أنساب العرب ، ص 109، 107، 88، 80، 32، 24 ، 179، 194، 193، 188 ، 294، 289، 269، 268 ، 307، 306 ، 310 ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، 18/203، 202 ، محمد أبوزهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية ، ص 542، 541 ، الطاهر مكي : دراسات عن ابن حزم ، ص 252-259 ، 243 ، ليث سعود : ابن عبد البر ، ص 295، 352، 332، 256، 251 ، عبد الحليم عويس : ابن حزم الأندلسي ، ص 152، 150 .

كان الحديث أول العلوم التي حصلها ابن حزم سماعاً ومطالعة ، ومن أهم الكتب التي طالعها في ذلك صحيحا البخاري ومسلم ، وسنن النسائي ، وأبى داود ، ومسند البزار ، ومسند أحمد بن حنبل ، ومسند ابن أبي شيبة ، ومصنف عبدالرازق ، ومصنف بقى بن مخلد الذي وصفه بقوله : " ومنها مصنفه الكبير الذي رتبته على أسماء الصحابة رضى الله عنهم . فروى فيه عن ألف وثلاثمائة صاحب ونيف . ثم رتب حديث كل صاحب على أسماء الفقه وأبواب الأحكام . فهو مصنف ومسند ، وما أعلم هذه الرتبة لأحد قبله مع ثقته وضبطه وإتقانه واحتفاله في الحديث وجودة شيوخه . فإنه روى عن مائتى رجل وأربعة وثمانين رجلاً ليس فيهم عشرة ضعفاء ، وسائرهم أعلام مشاهير " (1) ، وقد اعترف ابن حزم صراحة بأثر مصنفات بقى بن مخلد في الحديث عليه حيث قال في آخر رسالته في أسماء الصحابة الرواة : " فهذا آخر من روى عنه عليه السلام حديثاً فيها ضبطناه ، وضبطه من قبلنا الإمام الحافظ بقى بن مخلد الأندلسى ... " (2) ، ويتضح هذا الأثر جلياً في تخريجات ابن حزم الحديثية بكتابه المشهور (المحلى).

كما طالع ابن حزم كتاب (المختلف والمؤتلف في أسماء الرجال) لشيخه ابن الفرضي ، والذي استفاد منه كثيراً في الجرح والتعديل ، وكتابه (التمهيد والاستذكار) لصاحبه ابن عبدالبر النمري ، اللذان استفاد منهما في فقه الحديث استفادة جعلته يصف أحدهما وهو التمهيد بأنه كتاب لا يعلم مثله في فقه الحديث (3).

وقبل أن ننهي الكلام عن مطالعات ابن حزم في الحديث لابد أن نقرر أنه بالرغم من معرفته لمعظم المصنفات الخاصة بهذا الشأن في عصره وقبلة ، فإنه لم يعرف سنن ابن ماجة ، ولا الجامع الصحيح لأبى عيسى الترمذى ، إلا في فترة متأخرة من حياته ، ومن ثم فقد نبه هو نفسه على ذلك في رسالته الباهرة ، وقد تقصينا ذلك في كتابنا : " شبهات وأباطيل روجت ضد السادة الظاهرية " (4) ، مما يؤكد على أن ابن حزم عرف سنن الترمذى قبل وفاته ، وأنه

(1) أنظر : رسالة في فضل الأندلس ، رسائل 178، 179/2 ، الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، 202، 203/18.

(2) تحقيق ، أحمد حسن جابر ، هدية مجلة الأزهر ، جمادى الآخرة ، 1413هـ ، ص 61

(3) ابن حزم ، رسالة في فضل الأندلس ، 179، 180/2 .

4 لم يطبع بعد .

استدرك تجهيله للترمذى في كتابه الإيصال ، وهذا الذى ذكرناه نستدرك به ما أخطأنا فيه - بكتابتنا ابن حزم الظاهري وأثره في المجتمع الأندلسي - من التماسنا العذر لتجهيل ابن حزم للترمذى بكلام الذهبى الذى جاء فيه ، أن سنن ابن ماجة ، وسنن الترمذى لم يدخل الأندلس إلا بعد وفاة ابن حزم ، وهذا نص ما ذكرناه في كتابنا : " شبهات وأباطيل روجت ضد السادة الظاهرية " من استدراك : هذا الكلام الذى دافع به الذهبى عن ابن حزم ، ومن قبله ابن القطان تلقفه البعض ليشنعوا على ابن حزم ، وليؤكدوا أنه جهل الترمذى وأنه مات ولم يعرف كتابها لجامع وهذا وهم واضح وباطل بين البطلان للآتى :

أولاً : أن ذكر الترمذى كان مشهوراً بالأندلس حتى على السنة مشايخ ابن حزم وفي كتبهم ومنهم العلامة ابن الفرضى المالكى شيخ ابن حزم والذى ذكر الترمذى ونبه على قدره في كتابه " المؤلف والمختلف " (1).

ثانياً : أن الكتاب كان يدرس بالأندلس في أواخر القرن الرابع الهجرى والذى شهد مولد ابن حزم ، وممن درسه يحيى بن محمد الجياني (توفي 390هـ) وعن الجياني روى ابن عبد البر جامع الترمذى من طريقه .

ثالثاً : أن ابن عبد البر ذكر الترمذى في كتابه العظيم التمهيد ، وابن حزم قرظ هذا الكتاب ، فهل يا ترى رغم مدح ابن حزم لهذا الكتاب من الممكن أن يكون قد غفل عن ذكر الترمذى فيه ؟ ربما يكون ذلك ، وربما يكون وقف عليها ، ومن ثم غير رأيه فيه بعد تجهيله له ،

1 . أشار إلى هذا الكتاب كل من ابن حزم في رسالته في فضل الأندلس ضمن مجموعة رسائله بتحقيق العلامة إحسان عباس وعده من الأعمال الكبيرة التي قدمها الأندلسيون وتفوقوا بها على أهل المشرق ، وأنه في أسماء الرجال وأن الحافظ عبد الغني الأزدي المصرى لم يبلغ عند هذا المعنى إلا كتابين ، وبلغ أبو الوليد نحو الثلاثين ، كما وضح ابن حزم أنه لا يعلم مثله في فنه البتة . وذكره الحميدي في جذوة المقتبس ، والضبي في بغية الملتبس ، والذهبي في سير أعلام النبلاء وفي تذكرة الحفاظ ، كما ذكره ، وقد ذكره ابن بشكوال في صلته بقوله : (وجمع في المؤلف والمختلف كتاباً حسناً) . وللأسف هذا الكتاب الفريد في حكم المفقود في حدود علمي .

وهو ما سنوضحه لاحقاً بتفصيل بعد طرحنا للتسلسل التاريخي لكتب الإمام إن أنسا الله لنا في العمر.

رابعا : إذا فرضنا جدلاً أن ابن حزم لم يقف على كتاب شيخه ابن الفرضي الذي ذكر فيه الترمذي ، ولا على ذكر الترمذي في كتاب صاحبه ابن عبد البر فما الداعي لعدم تجهيل ابن حزم للترمذي في كتابه المحلى؟ ثم ما الداعي لجعله من الحفاظ الثقات في رسالته الباهرة؟ حيث قال حرفياً : " وأما الحفاظ فهو ضبط ألفاظ الحديث ، وتثقيف سوادها في الذكر ، والمعرفة بأسانيدها ، وهذه صفة حفاظ الحديث كالبخاري ومسلم والترمذي .. " (1).

وفي التاريخ طالع (تاريخ الرسل والملوك) لابن جرير ، وكتاب (النسب) للقاضي محمد بن صالح بن أم شيبان ، الذي وصفه بأنه لم يؤلف مثله استيعاباً وكماً (2) ، ولعله كان أحد الأسباب التي وجهته لدراسة الأنساب والتصنيف فيها ، كما طالع (السيرة النبوية) لابن إسحاق ، وكتاب (التاريخ والمغازي) للواقدي ، وكتاب (التاريخ الكبير) في أخبار أهل الأندلس وملوكها) لابن حيان ، الذي استفاد منه في رسالتيه (نقط العروس ، وذكر أوقات الأمراء وأيامهم بالأندلس) (3).

وكان لكثرة مطالعات ابن حزم التاريخية تأثير عليه في توسيع دائرة التاريخ بضم الأنساب إليه ، فضلاً عن اتجاهه لتنقية التاريخ مما علق به من خرافات وأكاذيب سابقا ابن خلدون في نقد الخبر التاريخي والتوصل إلى فلسفة التاريخ على ما بيناه في كتابنا : " ابن حزم الظاهري وأثره في المجتمع الأندلسي " ، وفصلناه تفصيلاً في كتاب جديد لنا سيصدر بمشيئة الله تعالى قريباً تحت عنوان : " التدوين التاريخي عند ابن حزم الظاهري " .

وبعد أن تعمق ابن حزم في الحديث والتاريخ اتجه لدراسة الفقه دراسة دقيقة عميقة ، بعد أن كان قد درس المبادئ الفقهية بجانبها على يد شيخه أحمد بن الجسور ، فبدأ بالفقه المالكي وطالع كتبه المشهورة حتى عصره ، ومن ثم فهو القائل رداً على مقلدي المالكية في

1 أنظر : الرسالة الباهرة ، تحقيق محمد صغير حسن معصومي ، بدون دار طبع ولا تاريخ نشر ، ص 50

2 أنظر : جبهة أنساب العرب ، ص 32 .

3 ابن حزم ، رسالة في فضل الأندلس ، رسائل 184/2 .

عصره : " فلعمري ما لشييوخهم ديوان مشهور مؤلف في نص مذهبهم إلا وقد رأيناه ولله الحمد كثيرا " (1) ، ومن أشهر الكتب التي طالعها (الواضحة) لعبد الملك بن حبيب ، (والعتبية) لتلميذه العتبي ، (والكافي في الفقه على مذهب مالك وأصحابه) لابن عبد البر في خمسة عشر جزءا ، (والمنتخب) لمحمد بن يحيى بن عمر بن لبابة ، الذي وصفه ابن حزم بأنه من أنبل الكتب في جمع روايات المذهب المالكي (2) ، وكتاب (مسائل الخلاف) للأبهري الصغير في نحو مائتي جزء ، وكتاب (تعليق المختصر) مثله ، وكتاب (المعتمد في الخلاف) لأحمد بن محمد القزويني في مائة جزء (3) .

وبعد مطالعات كثيرة لكتب المذهب المالكي لم يجد فيه ابن حزم ما يوائم فكره فتحول عنه إلى الشافعي ، خاصة بعد أن قرأ كتاب الشافعي في (إبطال الاستحسان) الذي يعتبر مصدرا من مصادر الفقه الشافعي ، وكتابه (الأم في الفقه) ، ولكن نظرا لقلّة الشافعية بالأندلس بسبب السيطرة المالكية . فقد واجه ابن حزم صعوبة في تحصيله من الشيوخ والكتب ، الأمر الذي دفعه إلى مطالعته من كتب من اشتهر بالاختيار في الفقه مثل (بقي بن مخلد) الذي وصفه بالاختيار وعدم التقليد ، وأن تأليفه كانت قواعد للإسلام (4) ، ولا نعرف من كتبه سوى تفسير القرآن ، ومصنفه في الحديث ، ومصنفه في فضائل الصحابة والتابعين ، وهي في حكم المفقود . كما طالع كتب المتقدمين عنه من الشافعية مثل (قاسم بن محمد) الذي وصف تأليفه بالحسن ، ولا نعرف منها سوى كتاب (الإيضاح في الرد على المقلدين) ، وهو مفقود ، وكان لهذا الكتاب أثره الكبير على ابن حزم في نبذ التقليد وشن حملة شعواء على المقلدين ، كما يتضح من كتاباته . خاصة (المحلى ، والإحكام) ، كما طالع كتب

(1) أنظر : رسالتان له أجاب فيهما عن رسالتين ، رسائل 91/3 .

(2) أنظر : رسالة في فضل الأندلس ، رسائل 181/2 . وعن ابن لبابة أنظر الضبي ، بغية الملتبس ، ص 144 .

(3) أنظر : رسالتان له ، رسائل 91/3 . والأبهري الصغير هو محمد بن عبد الله ، ولد سنة 287هـ/900م ، وتوفي سنة 375هـ/985م ، والقزويني هو أحمد بن محمد بن زيد مات بعد سنة 365هـ ، وصنف في المذهب المالكي والخلاف . أنظر ابن النديم ، الفهرست ، ص 280 .

(4) أنظر : رسالة في فضل الأندلس ، 179/2 ؛ محمد أبوزهرة ، تاريخ المذاهب الإسلامية ، ص 541 .

(ابن آمنة الحجاري) الشافعي ، ولا نعرف منها سوى كتابه (أحكام القرآن) وهو مفقود (1) ، وإلى جانب كتب الشافعية فقد زودته كتب داود بن علي الأصفهاني بمعلومات هامة عن المذهب الشافعي . فقد كان يعرض للكثير من آراء الشافعي فيها ، لشدة إعجابه به وتعصبه له . حتى إنه صنف في فضائله والثناء عليه كتابين (2) . الأمر الذي دفع فقهاء الشافعية إلى اعتباره واحد منهم وترجموا له في طبقاتهم (3) .

وبعد ما يقرب من اثنتي عشرة سنة قضاها ابن حزم في مطالعة لكتب المذهب الشافعي ، ومدافعة عنه ضد خصومه ، نراه ينتقل إلى المنهجية الظاهرية ، والذي كان المذهب الشافعي مقدمة لها باعتباره مذهباً يعتمد على النصوص في معظمه ويعززها ، باستثناء أوجه خلاف بسيطة بينه وبين المذهب الظاهري ، والتي ياتي في مقدمتها تعويله على القياس الجلي كأحد الأصول ، وهو ما رفضه أهل الظاهر ، ومن ثم فالمذهب الشافعي يأتي بعد المذهب الحنبلي في درجة القرب للمذهب الظاهري في جزئية القياس ، وهو ما سيتضح عند الحديث عن المذهب الظاهري من هذا الفصل . على أية حال فإن تحول ابن حزم في هذه المرة لا يعتبر تحولاً مذهبياً بقدر ما هو بلوغاً للمنهجية التي تعزز النصوص أكثر فأكثر - ولا يعتمد على أي ضرب من ضروب الرأي - هي المنهجية الظاهرية .

وقد اعتمد ابن حزم في مطالعته الظاهرية على كتب داود بن علي إمام أهل الظاهر ، الذي أحصى له ابن النديم مائة وخمسين كتاباً منها تسعة تكون إحدى عشرة ألفاً وثمانمائة ورقة ، وكلها للأسف مفقودة (4) ، ومن هذه الكتب كتاب (الأصول) الذي تعرض فيه

(1) ابن حزم ، مصدر سابق ، 178، 179، 181/2 ؛ وانظر الضبي ، بغية الملتبس ، ص 153 . وعن ابن آمنة أنظر الضبي ، نفس المصدر ، ص 536 ترجمة 1516 ، ولم يزد عن قوله فقيه شافعي له كتاب في أحكام القرآن .

(2) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، 255/2 .

(3) تاج الدين السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق محمود الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، ط 1 ، 1383 هـ / 1964 م ، 284-293 .

(94) أنظر : الفهرست ، ص 299-301 .

لأصول المذهب الظاهري ، وكتاب (الذب عن السنن والأحكام والأخبار) في ألف ورقة ، وكتاب (الإجماع) ، وكتاب (إبطال التقليد) ، وكتاب (إبطال القياس) وغيرها .

أعجب ابن حزم بمعظم كتب داود إعجابا شديدا حتى إنه تبنى الكثير من الآراء المدونة بها وأثبتها في كتبه الفقهية . خاصة المحلى ، وبالرغم من ذلك فقد خالفه ابن حزم في بضع وستين مسألة بعضها راجع إلى الخلاف في فهم النص ، والآخر إلى الخلاف في صحة حديث وضعفه ، وسبب ثالث هو الخلاف في النسخ هل الحديث المعتمد عليه في الفتوى هو الناسخ أم المنسوخ ، ورابع يتمثل في وصول أحاديث لابن حزم لم تصل لداود باعتبار الأول متأخرا عن الثاني ⁽¹⁾ ، وهذا الخلاف بصفة عامة يرجع إلى المنهجية الظاهرية التي تنبذ التقليد وتنفر منه ، وتدعو إلى الاجتهاد طالما أن هناك نصوصاً من القرآن والسنة تؤيد ذلك . وابن حزم يوضح ذلك جليا خاصة علاقته بداود الظاهري في قوله : " ولسنا نرضي عمن يغضب لنا إنما نرضي عمن يغضب للحق ، ولا نسر . بمن ينصر . أقوالنا ، وإنما نسر . بمن ينصر . الحق حيث هو ... ولا يجهل علينا جاهل فيظن أننا متبعون الإمام أبي سليمان داود بن علي . إنما أبو سليمان شيخ من شيوخنا ومعلم من معلمينا . إن أصاب الحق فنحن معه اتباعا للحق ، وإن أخطأ اعتذرنا له ، واتبعنا الحق حيث فهمناه " ⁽²⁾ ، ولقد كان لهذه المنهجية نفس الأثر على داود ابن علي إمام المذهب الذي خالف الإمام الشافعي وصنف في ذلك كتابا ⁽³⁾ ، بالرغم من إفراطه في الإعجاب به والتعصب له .

ومن الكتب التي قرأها ابن حزم في المذهب الظاهري كتب أبي الحسن ابن المغلس كتاب (المفصح ، المزني ، المنجح ، اجكام القرآن ، الطلاق ، الولاء ، الموضح) ⁽⁴⁾ ، وكل

(1) عن بعض المسائل التي خالف فيها ابن حزم داود أنظر المحلى ، مسائل رقم 299 ، 349 ، 353 ، 467 ، 480 . وقد جمعنا هذه المسائل بفضل الله تعالى في رسالة مفردة وسمناها ب : "المسائل الخلافية بين ابن حزم الظاهري وداود بن علي الظاهري" ، وستجد طريقها للنشر قريبا بمشيئة الله .

(2) نقلا عن عبد الحليم عويس ، ابن حزم ، ص 344 ، 345 .

(3) ابن النديم ، الفهرست ، ص 301 .

(4) نفس المصدر والصفحة ؛ وانظر الذهبي ، سير اعلام النبلاء ، 194/18 .

هذه الكتب مفقودة ، وكتب المنذر ابن سعيد البلوطي ومنها (أحكام القرآن ، الأدلة علي استنباط الأحكام من كتاب الله ، الإبانة عن حقائق أصول الديانة) (1) وهي مفقودة . ولم يقف الامر بابن حزم في مطالعته الفقهية عند هذا الحد بل نراه يطالع فقه الأوزعي وأبا حنيفة وتلاميذه والحسن البصري وابن أبي ليلة وابن شبرمة وعثمان البتي وابن حنبل ... وغيرهم من أئمة السلف والتابعين الذين عرض لهم في كتابه المحلي وتأثر بالكثير من آرائهم .

وقد اقتضت المنهجية الظاهرية أن يحيط ابن حزم باللغة العربية وآدابها باعتبارها أحد الأصول التي يعتمد عليها في الفتوى والاستنباط ؛ ومن ثم فقد عكف على معظم كتب اللغة وطالعتها بدقة وإتقان ، الأمر الذي انعكس عليه في كتاباته المتنوعة وكأنه فقيه من فقهاء اللغة ، ومن الكتب التي اطلع عليها وكان لها تأثيرها القوي عليه (المعزى ، حيلة ومحالة ، الهشاشة والبشاشة) لأبي زيد الأنصاري ، (ومختصر العين في علم اللغة ، الواضح في النحو) للزبيدي ، (والكتاب ، أمثلة الأسماء من الثلاثي والرابع والخماسي والسادسي) لسيبويه (2) . وقد اهتم ابن حزم بالشعر وصنف فيه ، وذلك من خلال كتابه (دعوة الملل في أبيات المثل) الذي يضم أربعين ألف بيت من الشعر (3) فضلا عن ما دونه في كتاب (طوق الحمامة) من شعر يقدر بسبعمئة بيت شعر ، وقد كان أكثر من ذلك لولا أن يد الناسخ تطرقت للكتاب بالحذف كما بينا في كتابنا : " ابن حزم الظاهري وأثره في المجتمع الأندلسي " ، ومن أشهر الدواوين التي اطلع عليها ديوان (النابغة الذبياني ، جرير ، الفرزدق ، ليبد بن ربيعة ، المتنبي ، الحسن بن هانئ ، ابن دراج القسطلی ، الشاعر الطليق الذي وصفه ابن حزم بأنه (أشعر أهل الأندلس في زمانه) ، ابن الرومي (4) .

(1) ابن حزم ، رسالة في فضل الاندلس ، رسائل 179/2 .

(2) أنظر : ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص 373 ؛ رسالة مراتب العلوم ، رسائل 66،67/4 ؛ رسالة التلخيص ، رسائل 164/3 ؛ الفصل ، 204/3 .

(3) الفيروزآبادي ، البلغة في أئمة اللغة ، تحقيق محمد المصري ، مطبعة جامعة دمشق ، 1972م ، ص 148 .

(4) أنظر : ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص 79 ؛ التقريب ، ص 355 ؛ رسالة في فضل الأندلس ، رسائل 187،188/2 .

وقرأ ابن حزم مصادر الديانتين اليهودية والنصرانية وكان ذلك قبل عام 404هـ/1013م ، وقد وجد نفسه مضطرا لتعلم العبرية للوقوف على أصول الكلمات المعربة بالتوراة والتلمود وغيرهما من كتب اليهود ، وقد أجاد العبرية يشهد على ذلك تصحيحه فقرة في الإنجيل المكتوب باللاتينية ، مقارنة بالنص المكتوب بالعبرية (1) ، أما ما ذكره من قوله : " ولقد أخبرني بعض أهل البصر بالعبرانية " (2) فلا يناقض معرفته بالعبرية لأن ذلك كان قبل تعلمه لها أو أثناء تعلمه . وكتابه (الفصل) لم يظهر في شكله الحالي مرة واحدة بل على مراحل متعددة .

كما اضطر ابن حزم إلى تعلم اللاتينية ؛ لأن أصول النصرانية كتبت بها وكانت لغة التخاطب بين النصارى ، ومن الوسائل الناجحة التي يتكئ عليها ابن حزم في مناظراته أمام النصارى ، وقد أجادها يشهد على ذلك قوله : " ودار بلى بالأندلس موضع معروف باسمهم بشمالى قرطبة ، وهم هنالك إلى اليوم على أنسابهم ، لا يحسنون الكلام باللاتينية (اللاتينية) لكن بالعربية فقط نساؤهم ورجالهم " (3) فقوله (لا يحسنون) يدل على معرفته بهذه اللغة حتى استطاع الحكم على درجة إجادتهم لها . ومن أشهر الكتب التي قرأها في هذا الشأن (التوراة ، الزبور ، كتاب شعيا ، التلمود ، الأناجيل الأربعة ، كتاب الوحي والإعلان ليوحنا سبداى ، الرسائل الخمسة عشر لبولس ... وغير ذلك) (4) .

كما درس ابن حزم الفرق الإسلامية دراسة متقنة وطالع فيها العديد من الكتب مثل كتاب (الامامة لأبي جعفر السمناني ، الميزان لهشام ابن الحكم الرافضي ، المسائل العسكرية لأبي هشام عبد السلام الجبائي ، كتابي المجالس والموجز لأبي الحسن الأشعري ...) والتي حاورها في كتابيه (الفصل في الملل والأهواء والنحل ، الأصول والفروع) (5) .

(1) عن ذلك أنظر : الفصل ، 1/66، 67، 68 ؛ رسالة في الرد على ابن النخيلة اليهودي ، رسائل 3/64، 65 .

(2) أنظر : الفصل ، 1/168 .

(3) أنظر : جمهرة أنساب العرب ، ص 443 .

(4) ابن حزم ، الفصل ، 1/72، 145، 251، 252، 261 .

(5) ابن حزم ، الفصل ، 1/393، 408، 11/2، 11/3، 163 .

ودرس التصوف دراسة نقدية ليقاوم القول بالباطن الذي ازدهر على أيدي الشيعة بالأندلس في عصره ، وطالع ابن حزم فيه الكثير من الآراء دون أن يشير الي كتبهم باستثناء كتاب (تفضيل الصالحين من الناس علي الملائكة) لابن أبي عيسي (أحد معاصريه بالأندلس) ، وما دون ذلك اكتفى بالإشارة إلي أسمائهم فحسب مثل (ابن شمعون ، أبي حاضر النصيبي ، أبي الصباح السمرقندي ، أبي شعيب القلال...) (1).

ودرس الجغرافيا والتي أفادته في دراسته التاريخية وفي نقده لنصوص التوراة ، والمطالع لأقواله عن المساحات بين المدن ومنابع الانهار عند نقده للتوراة بكتابه (الفصل) يري قوة حسه الجغرافي الذي ينم عن مطالعات كثيرة ، بالرغم من أن كتبه التي بين أيدينا لم تفصح سوى عن بضعة كتب في هذا الشأن وهي (مسالك الأندلس ومراسيها وأمهاات مدنها لأحمد ابن محمد الرازي ، ومسالك أفريقيا وممالكها لمحمد ابن يوسف الوراق ، وجغرافيا لبطليموس) (2).

ودرس الطب والصيدلة والفلسفة والمنطق والعدد والهندسة ، ومن اشهر ما اطلع عليه في الطب والصيدلة كتب يحيى بن اسحاق الوزير التي وصفها بانها ربيعة حسان ، كتب محمد بن الحسن المذحجي ، وكتب ابن الهيثم في الخواص والسموم والعقاقير والتي وصفها بأنها من أجل الكتب وأنفعها ، وكتاب التصريف لمن عجز عن التأليف لأبي القاسم خلف الزهراوي الذي وصفه بقوله : " لئن قلنا إنه لم يؤلف في الطب اجمع منه ولا أحسن للقول والعمل في الطبائع لنصدقن " (3) .

(1) انظر نفسه ، 3/166؛ الأصول والفروع ، ص258. ولم أعثر على تراجم لما ذكرناه بأعلاه فيما بين يدي من مصادر.

(2) انظر رسالة في فضل الاندلس ، رسائل ، 2/172 ، 173 ، 175 ، الفصل ، 1/143 . وعن الرازي والوراق أنظر بالشيا ، تاريخ الفكر الأندلسي ، ص307، 197، 196.

(3) انظر : رسالة في فضل الاندلس ، 2/ 185 . وعن يحيى بن إسحاق والزهراوي أنظر الضبي ، بغية الملتبس ، ترجمة رقم 715 ، 1460.

واطلع في الفلسفة على رسائل إخوان الصفا ، وكانت أحد الأسباب التي دفعته لمهاجمة الباطن وتبني القول بالظاهر لما فيها من رموز ومخالفات للأمور الظاهرة المعروفة من الدين ، وكتب أرسطاطاليس وجالينوس وكتاب إيساغوجي (المدخل) لفرفورئوس (1) ، وكانت هذه الكتب دافعا لتعلمه اللغة اليونانية ومساعدة له لتبسيط المنطق ، وكتاب العلم الإلهي لمحمد بن زكريا الرازي ، وكتب ورسائل محمد بن الحسن المذبحي ، وكتب الكندي التي نقدها ابن حزم في رسائله لما فيها من مخالفات للعقيدة والشريعة (2).

وفي الهندسة والعدد قرأ كتاب (إقليدس) في علم العدد ، كتاب (المجسطي) لبطليموس ، كتاب (الأرثماتيقي في طبائع العدد) لأندروماخس ، كتاب (المساحة المجهولة) لأحمد بن نصر- (3) ، وقد هياها ذلك للوقوف على تركيب الأفلاك ودورانها ، ومعرفة الكسوفات وعروض البلاد وأطوالها والمد والجزر ومنازل الشمس والقمر ، والتوجه لدراسة علم الهيئة (4) ، ومن ثم استطاع أن يتوصل إلى نظريات فلكية أيدتها الأبحاث والاكتشافات الحديثة مثل كروية الأرض ... إلى غير ذلك مما فصلناه بكتابنا ابن حزم الظاهري وأثره في المجتمع الأندلسي .

الجدير بالذكر أن تحول ابن حزم للمذهب الظاهري كان قبل سنة 418هـ/1027م ، وهي السنة التي صنف فيها طوق الحمامة ، أو التي تليها حيث روى المقرئ نصافحواء أن ابن حزم وصاحبه ابن عبد البر كانا يمران بسكة الخطابين بإشبيلية فلقيها شاب حسن الوجه

(1) ابن حزم ، الفصل ، 3/271، 253 ، وانظر ، التقريب ، ص 104 ؛ الطاهر مكي ، دراسات عن ابن حزم ، ص 243 ، وفرفورئوس : من مدينة صور شرح كتب أرسطاطاليس وكان بعد الاسكندر وجالينوس ، انظر ابن النديم ، الفهرست ، ص 349 .

(2) انظر الرد على الكندي الفيلسوف ، رسائل 4/363 ، 385 ، وعن الكندي ومصنفاته انظر ابن النديم ، السابق ، ص 351-359 .

(3) ابن حزم ، رسالة مراتب العلوم ، رسائل 4/69 ؛ رسالة في فضل الأندلس ، 2/186 ؛ رسالة التوقيف ، رسائل 3/132 . وأندروماخس حكيم كان أيام الإسكندر الأكبر لمزيد من التفاصيل أنظر على بن يوسف القفطي ، أخبار العلماء ، مطبعة السعادة ، مصر ، ط 1 ، 1326هـ ، ص 52 .

(4) أنظر : ابن حزم ، رسالة التوقيف ، رسائل 3/132 ؛ رسالة مراتب العلوم ، رسائل 4/69 .

، فقال ابن حزم هذه صورة حسنة . فرد عليه ابن عبد البر لم نر إلا الوجه لعل ما سترته الثياب ليس كذلك ، فارتجل ابن حزم أبياتا تضمنت بيتا يشير صراحة إلى ظاهريته وهو :-

ألم تعلم أنى ظاهري وأننى على ما أرى حتى يقوم دليل .

أورد المقرئ هذه القصة وأسبقها بقوله : " قال ابن حزم في طوق الحمامة " (1) وبالرغم من عدم ورودها في نسخة الطوق الحالية فيمكننا أن نثق في كلام المقرئ إذا علمنا أن النسخة التي بين أيدينا ليست كاملة باعتراف الناسخ نفسه ، الذي حذف أكثر أشعارها تحسينا لها وتصغيرا لحجمها (2).

لم يتم تحول ابن حزم للمذهب الظاهري مرة واحدة ، وإنما كان على مراحل متفاوتة :-

أولها : مطالعته كتب بقى بن مخلد وغيره من مؤسسى مدرسة الحديث الأندلسية ، التى تأثر بها ، وتبنى مبادئها الداعية إلى نبذ التقليد والاعتماد على الاختيار من النصوص دون تعصب لأحد ، ومن ثم بدأ يغير أفكاره المتعصبة للمذهب الشافعى .

ثانيها : دراسته لبعض الكتب التى اعترضت على الفقه الشافعى فى عدة قضايا ، مثل اعتراض القاضى محمد بن عبدون القيروانى على الشافعى ، وردود القاضى عبدالله بن أحمد بن طالب التميمى عليه أيضا (3) التى كان لها الأثر الكبير فى الانصراف عن الفقه الشافعى بعض الشيء إلى ما هو أكثر تعريزا للنصوص ، وهو مذهب أهل الحديث ، الذى كان مقدمة مباشرة لتحوله إلى أهل الظاهر . لكرهية المحدثين للقياس وتحذيرهم من استعماله مما مهد له إنكار القياس . خاصة بعد أن قرأ كتاب إبطال الاستحسان للشافعى ، ووجد أن الأدلة التى ساقها لإبطاله تصلح لإبطال القياس .

(1) أنظر : نفح الطيب ، 288/2 ، والبين رقم 4 من المقطوعة الشعرية .

(2) أنظر : طوق الحمامة ، ص 336 .

(3) ابن حزم ، رسالة فى فضل الأندلس ، رسائل 177/2 . وابن عبدون كان حافظا لمذهب أبى حنيفة كاتبا موثقا للشروط والوثائق ، تولى القضاء بالعراق ، والتميمى أحد علماء المالكية تولى قضاء القيروان مرتين فى عهد دولة الأغالبة ، وكان فطناً جيد النظر أنظر : الخشنى : طبقات علماء أفريقيا : تحقيق محمد زينهم ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ، ط 1 ، 1413 هـ / 1993 م ، ص 51 ، 17 ، 16 ، 53 .

ثالثها : مطالعة كتب داود بن علي الظاهري ، التي وجد فيها ما يوافق فكره ومنهجه ، خاصة وأن داود اعتمد في نفيه للقياس على كتاب الشافعي إبطال الاستحسان ، الأمر الذي زاد ابن حزم تعلقا بـداود .

رابعها : بدأ ابن حزم يبحث عن كل من اشتهر بالقول بالظاهر في الأندلس ، فلم يسعفه القدر سوى بشيخه أبي الخيار مسعود بن سليمان بن مفلت ، الذي درس على يديه المذهب ، وكان أمنيته التي ينشدها فهو ذو الفكر الحر الذي يعتمد على الاختيار ، ولا يرى التقليد ، ويأخذ بالنصوص وبالظاهر ، فضلا عن كونه متواضعا يرى أن العلم لا يقف عند حد بل هو من المهد إلى اللحد (1) ، ومن ثم فلا غرو أن يذكره ابن حزم في غير موضع من كتبه بالفضل والخير ، واصفا إياه بأنه أحد الأئمة المجتهدين المعدودين في عصره (2) ، ولعل خلو الأندلس من فقهاء ظاهريين من طراز أبي الخيار ، كان أحد الأسباب التي دفعت ابن حزم لتمنى الهجرة للمشرق (3) . ليلتقي بعلماء المدرسة الظاهرية بالعراق ، ويحيا في الموطن الذي شهد مولد المذهب على يد مؤسسه داود بن علي الأصفهاني .

(1) الذهبي ، تاريخ الإسلام ، 11/334 ؛ وانظر ، محمد أبوزهرة ، ابن حزم ، ص 300 .

(2) أنظر : رسالة التلخيص ، رسائل 3/144 ؛ الأحكام ، 2/95 ؛ أصحاب الفتيا من الصحابة ومن بعدهم ، ص 88 .

(3) أنظر : ديوان ابن حزم ، ص 94 فقرة 2 بيت رقم 2 .

المبحث الرابع

القيمة العلمية لمصنفات ابن حزم:

كان ابن حزم من أكثر العلماء تصنيفاً وتدويناً ، فقد صنف في العلوم العقلية والنقلية ، والأصول والفروع ، وأحصى له ولده أبو رافع الفضل مؤلفاته في الفقه والحديث والأصول والنحل والملل والتاريخ والنسب والأدب والرد على المعارضين وغير ذلك فبلغت نحو أربعمئة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة (1) ، وكذا فقد أحصاها ابن مرزوق اليحصبى فبلغت ثمانين ألف ورقة (2) ، وقد ورد عن أبي بكر الطرطوشي أنه جلس مع أبي سليمان المصعب على تواليه والده ابن حزم كلها مع المختصين من أصحابه ، وأحصوا المدة التي يمكن نسخ جميعها لناسخ تكون صناعته لا يفتر عن النسخ إلا في وقت وضوء وصلاة وطعام ، وما شابه ذلك فوجدوا مدة ذلك ثمانين سنة (3) ، ومن هذا الكلام نخلص بالآتي :

أولاً : مدى الجهد الذي قام به ابن حزم حيث صنف أربعمئة مصنف في مدة لا تتجاوز الثمانية والثلاثين عاماً ، إذ إنه بدأ في التصنيف وهو ابن أربع وثلاثين عاماً سنة 418هـ/1027م ، وكان طوق الحماسة أول مصنفاته .

ثانياً : أن ابن حزم قد ترك أثراً واضحاً على العلماء بعده حتى أنهم كانوا يجتمعون على مؤلفاته ، ويقارنون بينها كثرات ضخمة وبين عقلية صاحبها الذي استطاع أن ينتهي منها في وقت وجيز على كثرتها وضخامتها ، ولذا فلا غرو أن يعتبره أحد الباحثين المحدثين بداية المرحلة الأخيرة في تاريخ الفكر العربي والتي تمثل ذروة التفكير العقل والاجتماعي ، الذي يبدأ به وينتهي بابن خلدون (4) .

(1) نقلا عن صاعد ، طبقات الأمم ، ص 98 .

(2) نقلا عن إحسان عباس ، أخبار وتراجم أندلسية ، دار الثقافة ، بيروت ، ط 1 ، 1963م ، ص 52 .

(3) نقلا عن محمد إبراهيم الكنانى ، مؤلفات ابن حزم ، ص 86 .

(4) عمر فروخ ، تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1386هـ/1966م ، ص 25 .

ويمكن أن نجمل الأسباب التي دفعت ابن حزم لإخراج هذا التراث الضخم المتنوع في الآتي :-

أولا : نشر العلم وتبيينه للناس استنادا على العهد الذي أخذه الله على العلماء بعدم كتمه⁽¹⁾ .

ثانيا : إحياء المذهب الظاهري من رقدته بتصنيف الكتب في أصوله (كالأحكام ، وذو القواعد ، والإيصال ، والمجلى ، والمحلى ، والإجماع ...) .

ثالثا : تسهيل تناول العلم وتقريب حفظه لأهله بتصنيف الكتب المصغرة ، واختصار الكبيرة ، وتبسيط المصطلحات ، مثل (كتاب التقريب لحد المنطق ، والنبذة الكافية الذي هو اختصار للأحكام ، وجوامع السيرة ، ونقط العروس ، وأمّهات الخلفاء وغيرها) وهو في هذه المصنفات واقع تحت تأثير مذهبه الظاهري في التبسيط مع التدقيق لتسهيل الحفظ .

رابعا : رغبة تلاميذه وأصحابه في أن يصنف لهم كتباً فيما يعرض لهم من مسائل مثل (كتاب المحلى الذي صنفه بناء على رغبة بعض أصحابه وتلاميذه ، وطوق الحماسة التي صنفها بناء على طلب بعض أصحابه ، ورسالة التلخيص التي جاءت رداً على أسئلة وردت عليه من قبل جماعة من أصحابه)⁽²⁾ .

خامسا : الدفاع عن المذهب الظاهري والرد على خصومه مثل (كتابه فيما خالف الحنفية والمالكية والشافعية جمهور الصحابة ، وكتاب فيما خالف فيه المالكية الطائفة من الصحابة ، والإظهار لما شنع به عن الظاهرية) .

سادسا : الرد على رسائل رأى ضرورة الرد عليها لإظهار ما تحويه من أخطاء مثل (رسالته في فضل الأندلس التي رد فيها على زعم ابن الربيب القيرواني بأن أهل الأندلس لا يهتمون بتخليد مآثر بلدهم وعلمائهم ، ورسالته في الرد على ابن النغريلة اليهودي ، والرد على الكندي الفيلسوف ...) .

(1) ابن سعيد ، المغرب ، 355/1 .

(2) أنظر : المحلى ، 1/21 ؛ طوق الحماسة ، ص 21-23 ؛ رسائل ابن حزم ، 3/178 ، 143 .

سابعاً : ظهور ابن حزم بمظهر العبقرى المبدع صاحب المعرفة المتكاملة ، باعتباره مجدداً للفكر الإسلامى خاصة عندما اتجه للتصنيف فى الطب والشعر وأجاد فيهما .

ثامناً : احتكاك ابن حزم بأهل الجهل مما كان له أكبر الأثر فى توقد طبعه وحمو فكره ، وإخراج تواليف عظيمة المنفعة ، وهو فى هذا الصدد يقول " ولولا استشارتهم ساكنى ، واقتداحهم كامنى ، ما انبعثت تلك التواليف " (1) .

تاسعاً : كثرة الرحلات والتنقلات التى فتقت ذهنه نحو التأليف ، وفتحت له الموضوعات الجديدة فى التصنيف كما سبق .

عاشراً : ظروف العصر- والحياة الفكرية المزدهرة من جراء الخلاف الفقهى الذى بلغ مداه فى عصر- ابن حزم ، وقد كان لذلك أكبر الأثر فى الاتجاه للتأليف والتصنيف لحسم هذا الخلاف .

وبمطالعة قائمة الكتب الى أحصيناها لابن حزم ، والتى تبلغ مائة وتسعة وستين مصنفاً (2) ، ومطالعة المطبوع منها والموجود بين أيدينا نخلص بالحقائق الآتية :-

أولاً : تعدد المجالات المعرفية التى طرقها ابن حزم من تاريخ وفقه وحديث وعقائد وفلسفة ومنطق وتفسير وأدب ونحو وشعر وطب وسياسة ، وهذا يوضح أنه كان جامعة للعلوم العقلية والنقلية باستثناء الحساب الذى لم يخصه بمصنف فيما أحصيناه له من مؤلفات ، ومع هذا التعدد فالمطالع لأى علم من العلوم التى طرقها يظن أنه لا يحسن غيره لمهارته فيه .

ثانياً : ابتكار ابن حزم لموضوعات جديدة فى المعرفة ، كفلسفة التاريخ، وكروية الأرض، ونظرية المعرفة .

ثالثاً : الصدق هو أبرز سمة لهذه المصنفات فابن حزم كتبها دفاعاً عن مبادئه التى يؤمن بها ، ولم يكتب تملقاً لأحد أو بغية كسب مادى أو دنيوى ، بل إن كتبه لم يرض عنها معظم أهل الأندلس ، وتكالبوا عليها وأحرقوها لمخالفتها لمعارفهم ومناهجهم .

(1) أنظر : الأخلاق والسير فى مداواة النفوس ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط 1 ، 1978 م .

2 راجع ذلك بملاحق كتابنا ابن حزم الظاهري وأثره فى المجتمع الأندلسي .

رابعاً : أن هذه المصنفات تعتبر أكبر وثيقة مفصلة للحياة الثقافية والفكرية التي انتظمت العالم الإسلامي عامة والأندلس بخاصة خلال القرنين الرابع والخامس للهجرة .

خامساً : هذه المؤلفات تنم عن استقلال فكرى فى ضوء القرآن والسنة وإجماع الصحابة .

سادساً : كثرة مطالعات ابن حزم وخاصة فى علوم الشريعة التى نال منها ما لم ينله أحد قبله بالأندلس ، ومن ثم فقد صنف فيها مصنفات كثيرة العدد شرعية المقصد تكون ثمانية وستين مصنفاً من جملة ما أحصيناه أى أكثر من ثلثه تقريباً .

سابعاً : أن هذه المؤلفات تدل على عقلية عجيبة فى الفهم الدقيق الشامل والاستنتاج والاستنباط ونقد آراء الآخرين ومجادلتهم ، وهى خاصية لا تفارقة ، فلا نكاد نجده حاملاً الذهن مستسلماً للنقل ، بل هو نشط على طول الخط قادر على الابتكار فى كل ما يكتب .

ثامناً : أن هذا الجهد الضخم من إنتاج ابن حزم كفيل بأن يلفت نظرنا إلى الحضارة العظيمة التى نشأت فى ظل دولة الإسلام ، وبلغت هذا المبلغ العظيم من التقدم ، والذى كان سبباً فى خروج قمة من قمم الإسلام بل والإنسانية هى ابن حزم .

المبحث الخامس

ابن حزم وجهوده السياسية:

مرت علاقة ابن حزم بحكام الأندلس في عصره بمرحلتين : الأولى علاقته بخلفاء بنى أمية، وكانت تتسم بالولاء لهم، بسبب أموية جده الأعلى يزيد مولى يزيد بن أبى سفيان؛ والتي انعكست على أسرة بن حزم بأسرها بمن فيهم ابن حزم، ويتضح ولاؤه الأموى فى أمرين :-

الأول: صلته بخلفاء وأمراء بنى أمية، ومجالسته لهم فى مجلس الحكم وغيره مثل هشام المؤيد بن الحكم، ومحمد المهدي 399هـ . 400هـ/ 1009 . 1010م، وعبدالرحمن المرتضى- 408هـ/ 1017م، وعبدالرحمن المستظهر، وهشام الثالث المعتد بالله 418هـ . 422هـ/ 1027 . 1030م⁽¹⁾.

الثاني: عمله على انبعاث الدولة الأموية خلال عصر- الفتنة بالدعوة لبعض رجالها مثل عبدالرحمن المرتضى، وعبدالرحمن المستظهر ، كما سبق وأن أشرنا.

لقد كان لهذا الولاء أثره فى اختيار عبدالرحمن المستظهر له كأحد وزرائه المقربين، وترشيح بنى أمية له كوزير فى خلافة هشام الثالث المعتد بالله⁽²⁾، إلى جانب مكانته السياسية فى عهده والتي تتضح من خلال نص رواه يشير إلى أنه فى سنة 422هـ/ 1030م قضى بالميراث لمحمد بن عبدالملك بن عبدالرحمن ودفعه إليه، على أثر وفاة محمد بن عبيدالله بن عبدالله بن مروان⁽³⁾ فهذا النص يوضح أن ابن حزم كان متولياً ولاية القضاء، حيث قضى فى حكمه بدفع الميراث إلى محمد بن عبدالملك.

وهكذا فقد تمكن ابن حزم من نشر- أفكاره أو بعضها من خلال توليه بعض المناصب التى أتاحت له الحكم فى القضايا التى ترفع إليه حسب فكره ومنهجه، فضلاً عن نجاحه فى

(1) ابن حزم، طوق الحمامة، ص 78، 79، 173، 174.

(2) ياقوت، معجم الأدباء، 237/12.

(3) أنظر: جهمرة أنساب العرب، ص 5، 6؛ ومحمد بن عبدالملك ، ومحمد بن عبيد الله لم نعثر لهما على ترجمة

إقناع المستظهر بالعمل ببعض آرائه السياسية الخاصة بالوزارة وغيرها كما سيتضح بالفصل الثالث من هذه الدراسة.

وأما ما ذهب إليه خير الدين الزركلي من أن ابن حزم كانت له ولأبيه رئاسة الوزارة⁽¹⁾ فليس بصحيح، لأن رئاسة الوزارة كانت للمنصور بن أبي عامر ولولديه المظفر عبد الملك وعبد الرحمن شنجول من بعده، وكان أحمد بن سعيد والده وزيراً للمنصور ولولديه إلى أن ألقى من منصبه سنة 399هـ/1009م، عندما تولى محمد المهدي، وظل كذلك بلا منصب حتى توفي سنة 402هـ/1012م، أضف إلى ذلك أن أحداً من القدامى والمحدثين ممن ترجموا لابن حزم لم يقل بمثل ما قال الزركلي مما يضعف من قوله.

وتجدر الإشارة إلى أن ابن حزم إذا كان قد نجح في تحقيق بعض النتائج الإيجابية من خلال توليه بعض المناصب العليا في الدولة، فإنه قد لقي معارضة من بعض أهل الأندلس، خاصة ابن حيان الذي قال فيه: "ومما زاد في شنآنه تشييعه لأمرأى بنى أمية ماضيهم وبارقيهم بالمشرق والأندلس، واعتقاده لصحة إمامتهم، وانحرافه عن سواهم من قريش حتى نسب إلى النصب لغيرهم"⁽²⁾. وهذه المقولة تستحق وقفة متأنية لتحليلها في الآتي :-

أولاً: أن ولاء ابن حزم وتشيعه لبنى أمية كان ولاء محبة وتقدير للدور الذي لعبوه في نشر الإسلام بالأندلس وغيرها؛ فضلاً عن دورهم في الحفاظ على وحدة الجماعة بالأندلس، إذ حينما سقطت خلافتهم تفككت الأندلس إلى إمارات متناحرة تحارب بعضها البعض. ولذا لم يكن ولاؤه لهم قائماً على التعصب؛ بل كان مالياً لأهل الحق منهم، ولم يغمض الطرف عن سيئات الدولة الأموية بالمشرق والأندلس، بل ندد بها في كتاباته وليس أدل على ذلك من نقده لبنى أمية في المشرق على لعنهم على بن أبي طالب وبنيه حاشا عمر بن عبدالعزيز ويزيد بن الوليد بن عبد الملك، في حين أشاد ببنى العباس الذين لم يجيزوا ذلك⁽³⁾. فضلاً عن نقده ليزيد بن معاوية لما فعله بالصحابية في موقعة الحرة سنة 63هـ/683م، ووصفه لكل من يزيد

(1) أنظر: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط 5، 1980م، 4/254.

(2) نقلاً عن ابن بسام، الذخيرة، ق 1 م 1 ص 169.

(3) أنظر: أسماء الخلفاء، ص 121.

عبد الملك، والحكم الرضي، وعبدالرحمن الناصر بالانهاك في المعاصي واللذات والمجاهرة بذلك، ووصفه للمستكفي بالحماقة والبعد عن كل خلة خير والجمع لكل خلة سوء، ووصفه لهشام بن الحكم المستنصر، وهشام المعتد بالله بالضعف والتغلب عليهما⁽¹⁾.

ثانياً: أن ابن حزم لم يكن منحرفاً عمن سوى بنى أمية من قريش، يشهد على ذلك إيمانه بخلافة عبدالله بن الزبير وإقراره بها، واعتباره مروان بن الحكم خارجاً عليه⁽²⁾.

ثالثاً: أن كلمة النصب تعنى المعادى لأهل البيت، وابن حزم لم يكن كذلك بل كان من أكثر الناس توقيراً لهم ما دام الحق معهم، وليس أدل على ذلك من قطعه بأن على بن أبى طالب هو صاحب الحق في حربه ضد معاوية وأن له أجريين، ومعاوية ومن معه مخطئون مأجورون أجراً واحداً⁽³⁾. وأما معارضته لبنى حمود فلا يفهم منها معاداته لأهل البيت، وإنما كان سببها تشيع البعض منهم، والتفاف بعض المتشيعين حولهم، ونشرهم لأفكار معارضة لأهل السنة، على ما سيتضح بالفصل الرابع، هذا فضلاً عن الفساد الذى لحق بالأندلس على أيدي أتباعهم من البربر كما سبق بهذا الفصل، ومن ثم فإن نسبته إلى النصب فيما يبدو كانت من قبل المتشيعين لبنى حمود وبعض فقهاء المالكية، الذين ضاقوا ذرعاً به لشدة حملته عليهم فعمدوا إلى هذا الوصف للتشهير به بين العامة والعلماء.

أما عن المرحلة الثانية في علاقته بحكام عصره فكانت بعد سقوط الخلافة الأموية بالأندلس منذ سنة 422هـ/1030م واتسمت بالعداء والمعارضة لملوك الطوائف، لما كانت عليه أفعالهم من مخالفة للشرع، مع تسميتهم بألقاب الخلافة كالمعتضد والمعتمد والمستعين والمأمون وهم ليسوا لها أهلاً؛ فضلاً عن تحالفهم مع ملوك أسبانيا النصرانية والتنازل لهم عن بعض المدن والقلاع في مقابل مساندتهم ضد إخوانهم من الحكام المسلمين⁽⁴⁾.

(1) نفسه، ص 112؛ وانظر نقط العروس، رسائل 73/2، 75، 76.

(2) انظر: أسماء الخلفاء، ص 113.

(3) انظر: الفصل، 86/3.

(4) ابن حزم، رسالة التلخيص، رسائل 173/3، 176؛ نقط العروس، رسائل 102/2؛ وانظر الطرطوشى، سراج الملوك، ص 372؛ المراكشى، المعجب، ص 70.

لقد توجه ابن حزم بالنقد اللاذع لهم مظهرًا مفاستهم وضالهم وحكم الإسلام في أفعالهم لعلهم يرجعون عن غيرهم، أو لعل الناس يهبوا في وجههم لإجبارهم على ترك ما هم عليه من الفساد أو خلعتهم واستبدال غيرهم؛ ومن ثم فقد أفتى أصحابه الذين راسلوه سنة 426هـ/1034م تقريباً، يسألونه عن حكم الإسلام فيما يفعله ملوك الطوائف وما حدث في عصرهم من الفتن بأنهم محاربون لله ورسوله، وساعون في الأرض بالفساد؛ لشنهم الغارات على أموال المسلمين، وضربهم المكوس والضرائب على رقاب المسلمين وتسليطهم اليهود على قوارع طرق المسلمين، لأخذ الضرائب والمكوس منهم. ثم حذر أصحابه من بعض الفقهاء الذين يبررون لملوك الطوائف أفعالهم واصفاً إياهم بأنهم من الفساق وأن قلوبهم كقلوب السباع⁽¹⁾ وفي رده على سؤال آخر جاءه من نفس الأصحاب يسألونه فيه عن وجه السلامة في المطعم والملبس والمكسب في ذلك العصر؛ فأجابهم بأن ملوك الطوائف ليس لهم هدف إلا صالحهم وتمشية أمورهم حتى لو كان ذلك في عبادة الصلبان، ووصفهم بأنهم يستمدون النصراري ويمكنونهم من حرم المسلمين وأبنائهم ورجالهم ليحملوهم أسارى إلى بلادهم، ويتركون لهم المدن والقلع طوعاً فيخلوها من الإسلام ويعمروها بالنواقيس⁽²⁾. ومما سبق يمكن أن نخلص بالآتي:

أولاً: أن ابن حزم في هذا النقد لم تكن تحده نزعة عاطفية أو شخصية، وإنما كانت تحده نزعة إسلامية لاحتواء الفتنة والعودة إلى عصر- القوة والمنعة، ولم يكن مبالغاً أو متحاملاً، بل كان صادقاً فيما قاله، إذ أشار إلى وقائع وظروف تؤيدها الروايات والوثائق المعاصرة، وكان بحكم مكانته الاجتماعية والعلمية والدينية يدرك من أوضاع الأمور ما لا يدركه غيره⁽³⁾.

وبنظرة سريعة على المصادر التاريخية يتضح أن معظم ملوك الطوائف، باستثناء محمد بن قاسم صاحب البونت، وأحمد بن رشيق صاحب ميورقة، كانوا على درجة كبيرة من الغلظة

(1) انظر: رسالة التلخيص، ص 173.

(2) نفسه، ص 176.

(3) محمد عبدالله عنان، أندلسيات، ص 56، 57.

والفظاظة والانسلاخ عن الشرع، فمجاهد العامري كان خليعاً فاتكاً لا يسائر بلهو ولا لذة، ولا يستفيق من شراب وبطالة، وكان أبو مروان عبد الملك بن هذيل صاحب السهلة 437 . 497هـ/1045م . 1103م شديد الجهل والفظاظة، حتى أنه سطا بوالدته وأمسك فرجها بيده، أما المعتضد بن عباد فكان غير مأمون على الدماء ولا حافظاً لحزمة الأولياء، في حين كان إدريس بن يحيى بن علي بن حمود 433هـ/439هـ/1042م . 1047 لا يصحب ولا يقرب إلا كل ساقط نزل، ولا يحجب حرمة عنهم، وكل من طلب منهم حصناً أعطاه إياه⁽¹⁾ وغير ذلك كثير.

ثانياً: أن الأندلس تعرضت لانحيار اقتصادي في عصر ملوك الطوائف، بسبب الضرائب والقبالات التي فرضت على كل ما يباع في الأسواق، وعلى ما يملكه الناس من الغنم والبقر والنحل والدواب. ونتج عن ذلك ضعف مستوى معيشة الفرد؛ في الوقت الذي كان يحيا فيه الحكام في قصور شاهقة زينوها بالجوارى ومجالس الشراب، وأنفقوا الأموال في الحلال والحرام⁽²⁾.

ثالثاً: أن ابن حزم استطاع أن ينفذ إلى مجتمع الطوائف فيصفه وصفاً دقيقاً من شتى نواحيه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية، دون أن يعرض للتقدم العلمي الذي شهدته عصرهم، ليجسد صورته القاتمة، أملاً في الإصلاح والتخلص من المثالب، ومنعاً من إعجاب ملوك الطوائف بذكر جوانب العظمة في حكمهم وإن كانت ضئيلة.

رابعاً: إن ابن حزم قد فطن إلى أن مكمن الداء في العلماء الذين تخلوا عن دورهم في إسداء النصيحة للحكام، وانضوا تحت لوائهم يبررون طغيانهم وفسادهم، ويأكلون على موائدهم واضعين فتاويهم في خدمتهم تأييداً لهم باسم الشرع. وهو الأمر الذي أشار إليه ابن حبان هو الآخر⁽³⁾ ولعل ذلك يرجع إلى تأثره بابن حزم لأسبقيته الزمنية في التنديد بهذه

(1) قارن: ابن الآبار، الحلة، 29/2، 43؛ وابن عذاري، البيان المغرب، 3/156، 183.

(2) ابن حزم، رسالة التلخيص، ص 176؛ رسالة في الرد على ابن النغيلة، ص 41.

(3) انظر: ابن بسام، الذخيرة، مجلد 1 قسم 3 ص 180، 181.

الظاهرة، أو أن ذلك مرجعه إلى فكرة توارد الخواطر حيث لديها المنبع الثقافي والفكري، وتجمعهما أرض واحدة وواقع سياسى واجتماعى واقتصادى ودينى واحد.

لقد لقي تنديد ابن حزم صدى واسعاً بين المفكرين والشعراء، الذين استخدموا أسلوبه الثورى وبعضاً من كلماته التى استخدمها فى نقده وفتياه، فى شعرهم الموجه ضد ملوك الطوائف، ومنهم الشاعر المشهور بالسُميسر- خلف بن فزج الألبيرى الذى دعا للخروج عليهم لما فعلوه بالإسلام وأهله، ووصفهم بشق عصا النبى (ص)، وأبو طالب عبد الجبار المعروف بالمتنبئ الذى انتقد أفعال ملوك الطوائف من شرب خمر وجور وتعطيل للجهاد ومظاهرة للنصارى عباد الصليبان، ويوسف بن محمد بن الجد الذى وصفهم بالخمول والدعة فى الوقت الذى لهم فيه أسرى بأيدي النصارى، ثم دعا عليهم بالموت واستئصال ذكرهم⁽¹⁾ ومن المفكرين والفقهاء أبو الوليد الباجى الذى ثارت ثائرتة بما عاناه من ظروف عصره المتردية، وبما طالعه لخصمه ابن حزم من نقد وتنديد، فاحتسب نفسه وتنقل بين ملوك الطوائف فى محاولة للإصلاح وتقويم الوضع؛ لكنه لم يصادف أسماً واعياً⁽²⁾؛ ومحمد بن الوليد الطرطوشى الذى جاهر بمخالفة ملوك الطوائف لسير الأنبياء والمرسلين والخلفاء الراشدين، فى جبايتهم للأموال وإنفاقهم لها فى وجوه اللهو والترف دون أن يعود خيرها على الرعية⁽³⁾ بل إن تنديد ابن حزم وابن حيان بالعلماء الذين تخاذلوا عن دورهم فى إسداء النصائح للحكام، لقي صدى بين العامة الذين اختلقوا بعض الأمثال العامة التى تحذر من هذا النوع من الفقهاء كقولهم: "اتق الله العظيم ولا تشارك فى صفقه مع فقيه"⁽⁴⁾. وهكذا فقد كان لابن حزم دور هام فى إثارة بعض الفقهاء والشعراء ليقفوا بجانبه ليظهروا دور

(1) انظر: الطاهر مكي، دراسات أندلسية، ص 65، 16؛ ليت سعود، ابن عبد البر، ص 72.

(2) عبد الرحمن الحجى، التاريخ الأندلسى من الفتح حتى سقوط الخلافة، دار القلم، دمشق. بيروت، ط 1، 1396هـ / 1976م، ص 338. 344.

(3) انظر: سراج الملوك، ص 372.

(4) رجب محمد عبد الحليم، العلاقات بين الأندلس الإسلامية وأشبانيا النصرانية، دار الكتب الإسلامية والكتاب المصرى واللبنانى، (د.ت)، ص 281.

العلماء في إسداء النصح للحكام ومجابهة سلبيات حكمهم. كما كان لآرائه وفتاويه صدى كبير داخل المجتمع الأندلسي أدى إلى بزوغ الحوار والمجادلة بين الفقهاء والمفكرين حولها، ومن ثم الترويج لها في أوساط العامة.

خامساً: أن ابن حزم كان من أوائل العلماء الذين نبهوا إلى خطورة حركة الاسترداد La Reconquista على الإسلام بالأندلس من خلال الواقع التاريخي الذي عايشه، وذلك في رسالته التلخيص سنة 426هـ/1034م. وليس أدل على ذلك من سيطرة فرديناند ملك قشتالة وليون على بعض المدن التابعة لبطليموس مثل بازو وليمق سنة 449هـ/1057م، وقلمرية سنة 456هـ/1064م؛ وانتزاعه القلاع الواقعة جنوب نهر دويرة من ملك سرقسطة، وغزوه لأملاك المأمون صاحب طليطلة وإجبارة على دفع الجزية وإعلان تبعيته له كما فعل من قبل ملكا بطليوس وسرقسطة، فضلاً عن إغاراته على ماردة وإشبيلية وبربشتر التي قتل من أهلها ستة آلاف وسبى مائة آخرين سنة 456هـ/1064م، وشتمرية بلد عبد الملك بن رزين وفرض الجزية على أهلها⁽¹⁾.

وبالرغم من ذلك فإن ملوك الطوائف لم يتحدوا لمواجهة هذا الغزو الكاسح. بل راحوا يبحثون تحت أقدام فرديناند يطلبون وده ومسالمة بتسليح الحصون وأداء الجزية حتى يحل بعيداً عنهم⁽²⁾ وكرد فعل طبيعي لهذه الحال استخدم ابن حزم الفقه كسلاح يحارب به هذه الأوضاع المتردية، فأفتى بفرضية الجهاد على كل مسلمي الأندلس ما دام لم يقم به من يدفع العدو ويغزوه في عقر داره، ويحمي ثغور المسلمين، وأجاز الغزو مع كل فاسق من الأمراء

(1) انظر: ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص 68. 89؛ ابن بسام، الذخيرة، قسم 3 مجلد 1 ص 179. 190؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، 2/184؛ دوزي، المسلمون في الأندلس، 3/79؛ عبد المجيد نعنعي، الإسلام في طليطلة، دار النهضة العربية، بيروت، (د.ت)، ص 151. 153.)، وبطلينوس مدينة عظيمة تقع على نهر أنه، وهي إحدى كور مدينة ماردة أنظر ابن غالب، فرحة الأنفس، ص 290 وما ردة مدينة من بنيان العجم بينها وبين قرطبة خمسة أيام للراكب وعشرة للمشاة انظر: ابن الشباط، وصف الأندلس، ص 119، 120؛ وبربشتر قصبة بلدة برطانية بين لاردة وسرقسطة انظر: الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص 39. 41.

(2) دوزي، المسلمون في الأندلس، 3/69، 80.

وغيره ، ومع المتغلب والمحارب . بل أجاز أن يغزو الفرد وحده إن استطاع (1) ، وهذه النازلة توضح مدى فساد ملوك الطوائف وضعفهم عن الدفاع عن دينهم ، في الوقت الذي نشطت فيه حركة الاسترداد المسيحي نشاطا ملحوظا ، ومن ثم فابن حزم كان يتلمس أى وسيلة لتحقيق الجهاد حتى ولو كان الفرد وحده . أو مع إمام فاسق . وبذلك يتضح تجديده وتطويع الفقه لظروف مجتمعه ، إذ لم يسبقه إلى ذلك أحد من الفقهاء .

وإلى جانب الفتوى السابقة أفتى ابن حزم بضرورة انتزاع ما في أيدي تجار أهل الحرب (أعداء المسلمين) من الأسرى المسلمين وإمائهم وعبيدهم وأموالهم بلا عوض . أحبوا ذلك أم كرهوا ، وألزم مسلمى الأندلس جميعا أن يفدوا أسراهم من نصارى أسبانيا إن لم يكن لهم مال يفي لفدائهم ، ويرجع ذلك إلى سببين

الأول : كثرة الأسرى المسلمين لدى الأسبان نتيجة لغزواتهم المتكررة على الأندلس

الثاني : إجازة المالكية تملك تجار أهل الحرب لأسرى المسلمين دون أن يستردوهم منهم (2).

ومن جهود ابن حزم السياسية لمجابهة حركة الاسترداد . معارضته لما ساد عصره من معاهدات بين ملوك الطوائف وملوك أسبانيا النصرانية مثل ما وقع سنة 436هـ / 1044م بين المأمون صاحب طليطلة وفرديناند ملك قشتالة ضد المستعين صاحب سرقسطة نظير أن يؤدي له الجزية ويقر له بالطاعة ، وما حدث من استعانة عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن المنصور العامري صاحب بلنسية ببعض سريات النصارى في حربه ضد مجاهد العامري سنة 433هـ / 1041م ، وما وقع المعتضد بن عباد وملك قشتالة السابق سنة 456هـ / 1063م على أن يؤدي الأول الجزية للثاني مقابل أن يبقى على مملكته وذلك بعد موافقة فقهاء أشبيلية على ذلك عندما استفتاهم المعتضد (3) .

(1) أنظر : المحلى ، 5/340،352 .

(2) ابن حزم ، المحلى ، 5/360-364 .

(3) دوزى ، ملوك الطوائف ، ترجمة كامل الكيلاني ، مكتبة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، 1351هـ / 1933م ، ص 171 ؛ وانظر Prieto y vives, Antonio, Los Reyes de taifas estudio historica numismatica Los musulmanes espanoles en el siglo V de la hegira , Madrid , 1926 , P.53 . محمد عبدالله عنان ، دول الطوائف ، ص 212،213 ؛ عبدالنبي على عبدالله ، دولة بنى هود في سرقسطة ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب جامعة الإسكندرية ، 1992م ، ص 304 .

لقد انتقد ابن حزم هذا وأفتى بعدم جواز اسعانة المسلمين بأهل الحرب حتى ولو كان المستعان عليه من أهل البغى خارجاً على الحاكم (1). كما عارض العهود التي عقدها ملوك الطوائف مع نصارى الشمال، إلا إذا كان النصارى هم الذين يؤدون الجزية للمسلمين، وخص هذا الموضوع في فصل خاص من كتابه (الإحكام في أصول الأحكام) يقع في اثنتين وأربعين صفحة مما يوحى بخطورة هذا الموضوع خاصة بعد أن أجاز فقهاء عصره هذه المعاهدات (2) والمطالع لنوازل ابن حزم يرى مدى اهتمامه بأوضاع مجتمعه وتطويعه للفقهاء كوسيلة لمواجهة حركة الاسترداد. فبالرغم من تعطيل الجهاد الإسلامى فى الأندلس باستثناء حملات مجاهد العامرى على سردانية التى حصل منها على الغنائم الكثيرة فضلاً عن احتلاله لأجزاء كثيرة منها (3). فقد اشترط ابن حزم - استناداً على القرآن والسنة - تقسيم خمس الغنيمة على خمسة أسهم سهم يضعه الإمام فيما فيه صلاح وبر المسلمين، وثانى لبنى هاشم والمطلب وبنى عبد مناف، وثالث ليتامى المسلمين، ورابع لمساكين المسلمين وخامس لابن سبيل المسلمين (4) والجديد فى هذا التقسيم هو اشتراط ابن حزم الإسلام لكل من يتامى والمساكين وابن السبيل. متأثراً فى ذلك بظروف عصره إذ أن التباين الاقتصادى بين المسلمين وأهل الذمة كان واضحاً فى الوقت الذى كان يحى فيه الذميون حياة مرفهة وسيطرون على الوظائف العليا فى الدولة كان المسلمون مطالبين بسداد الكثير من الضرائب غير الشرعية لملوك الطوائف ليعيشوا حياة لاهية ويدفعوا الجزية لملوك أسبانيا مثل فرديناند ملك قشتالة ورامير الأول ملك أرجون. (5).

(1) أنظر: المحلى، 11/354-356 مسألة 2162.

(2) أنظر: مجلد 2 ص 5-47.

(3) ابن عذارى، البيان المغرب، 3/155؛ وانظر عنان، دول الطوائف، ص 186-189.

(4) أنظر: المحلى، 5/388، 389، والغنيمة هى المال المأخوذ من الكفار قهراً بالقتال ويشتمل على الأسرى من الرجال والسبى من النساء والأطفال والأرض والأموال. أنظر الماوردى، الأحكام السلطانية، ص 166، 161-180.

(5) ابن حزم، رسالة التلخيص، رسائل 3/176؛ وانظر Asin placios, Inexplorado del cordobes ibn hazm alandalus, V.2, P.37. وانظر غرسيه غومث، مع شعراء الأندلس، ترجمة الطاهر مكى، دار المعارف، القاهرة، ط 5، 1412هـ/1992م، ص 115 الأبيات 27-36.

وتجدر الإشارة إلى أنه بالرغم من اعتماد ابن حزم في تقسيمه على النصوص الشرعية ، فإنه قد عرض رأيا جديدا على معظم الأندلسيين إذ إن الكثيرين منهم كانوا يعتمدون على مذهب المالكية الذي ينص على جعل الخمس كله في بيت المال ، ويعطى منه أقرباء الرسول على ما يراه الحاكم وليس في ذلك حد محدود في حين أن البعض كان يعمل بقول الحنفية الذي ينص على تقسيم الخمس إلى ثلاثة أسهم للفقراء والمساكين وابن السبيل (1) .

وبالرغم من جهود ابن حزم السابقة التي كانت ترمى إلى رفع حركة الجهاد لمجابهة حركة الاسترداد ، وببذ المعاهدات بين الجانبين: الإسلامي والنصراني القائمة على خضوع المسلمين ؛ فإنه فشل خلال حياته في تحقيق ما كان يصبو إليه من توحيد الجبهة الإسلامية بالأندلس ضد نصارى أسبانيا . لكنه لم يعدم وجود أثر فكري لأرائه بين مجموعة من الشعراء الذين انبروا ينددون بالغارات النصرانية على الأندلس ، وبالمعاهدات التي وقعت بين ملوك الطوائف وملوك أسبانيا النصرانية ، ويدعون الناس إلى الخروج على حكام الأندلس (2) . فضلا عن جماعة من الفقهاء في مقدمتهم يوسف ابن عبد البر الذي وصف ملوك الطوائف بأنهم خدم للنصارى ، وابنه عبد الله الذي تتضح النزعة الحزمية في رسالته التي حث فيها أهل الأندلس على الجهاد موضحا لهم أن سبب هذا الاعتداء الصارخ هو كثرة الذنوب والإفراط فيها . فضلا عن الفرقة والتنازع بين ملوك الطوائف (3) ، ولا شك أن مرجع هذه النزعة هي أواصر الصداقة التي تجمع بين والده وابن حزم . فضلا عن الظروف والأوضاع التي كانت صاحبة تأثير قوى على كل من انبرى بعد ابن حزم يندد بمثل ما ندد به .

والواقع أن الأثر الفكري لابن حزم لم يقف عند حد عصره فحسب بل امتد إلى عصر المرابطين ، حيث تأثر به بعض الفقهاء في استخدام الفقه كوسيلة لإحياء الجهاد ومجابهة حركة الاسترداد ، وهي المسألة التي أصلها ابن حزم ودعا إليها كما سبق . ومن هؤلاء ابن رشد

(1) ابن حزم ، المحلى ، 392/5 .

(2) عن ذلك بالتفصيل أنظر : شعر هؤلاء الشعراء بملاحق كتابنا ابن حزم الظاهري وأثره في المجتمع الأندلسي .

(3) عن نص هذه الرسالة أنظر ابن بسام ، الذخيرة ، قسم 3 مجلد 1 ص 173 - 177 .

الجد الذى سئل فى إحدى النوازل التى رفعت إليه عن أيهما أفضل فى تلك الايام فأفتى بأفضلية الجهاد وأسقط فريضة الحج عن أهل زمانه لتعذر الوصول إلى الأماكن المقدسة مع الأمن على النفس والمال (1)، بيد أن ما كان يصبو إليه ابن حزم من تجميع الأندلس وإحياء حركة الجهاد الإسلامى لاسترداد ما فقد من ديار المسلمين نراه يتحقق فى عهد الموحدين . فقد كان يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن شغوفاً بالجهاد يظهر ذلك من الناحية النظرية فى كتابه - الجهاد - الذى يرغب فيه الناس لتحقيق هذه الفريضة بضم مجموعة كبيرة من الأحاديث الواردة فى فضله والحث عليه وبيان محاسنه ، ومن الناحية العملية فى عنايته بحشد الجيوش العظيمة وتمويلها وقيادتها لاسترداد ما فقد من أراضى على أيدي النصارى ففى سنة 578هـ/1182م غزا حصن شنتقيلة فى المنطقة بين إشبيلية وقرطبة . كما غزا مدينة طلبيرة أولى مدن الحدود القشتالية ، وهزم القشتاليين واستولى على عتادهم ودوابهم ، وفى سنة 580هـ/1184م غزا مدينة شنترين ونجح فى اقتحامها . وقد تابع المنصور والده فى ذلك فاسترد فى سنة 587هـ/1191م قاعدة قصر الفتح الواقعة جنوبى شرقى أشبونة ، وحصن قلماه ، وحصن المعدن ، ومدينة شلب (2)، وبعد انتصاره على القشتاليين فى معركة الأرك سنة 591هـ/1194م أرسل جنوده إلى قلعة رباح فاستولت على عدة حصون واقتحمت القلعة نفسها بعد قتال عنيف ، ثم صار المنصور بعد ذلك مخترقاً أراضى قشتالة يثخن فيها قتلاً وأسراً وسبياً (3)، وفى سنة 600هـ/1203م جهز محمد الناصر حملة لغزو جزر البليار نجحت فى فتح ميورقة ، وفى سنة 608هـ/1211م تمكن من استرداد قلعة شلبطرة وحصن

(1) نقلاً عن الونشريسي ، المعيار ، 432/1 ، لم ينظر إلى إحياء حركة الجهاد الإسلامى فى عهد المرابطين على أنها تأثر بابن حزم لأنهم كانوا مالكي المذهب ، ويرفضون كل ما من شأنه مخالف للمالكية ، وإنما مرجع ذلك إلى الظروف السياسية وتدين البعض من حكام المرابطين . أنظر محمود على مكى ، وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين ، صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية ، مدريد ، 1959م - 1960م ، مجلد 7، ص 127-129.

(2) المراكشى ، المعجب ، ص 256-259، 280؛ وانظر عنان ، عصر المرابطين والموحدين ، ص 103-105، 119-123، 186، 134-188.

(3) عنان ، مرجع سابق ، ص 214-221.

اللعج (1). وهكذا فقد تضافر فقه الجهاد الظاهري الدافع لمقاومة حركة الاسترداد مع الظروف السياسية بالأندلس ودفع حكام الدولة الموحدية إلى إحياء حركة الجهاد الإسلامي كما سبق.

وتجدر الإشارة إلى أن ابن حزم رغم شدته على ملوك الطوائف في فتاواه لا سيما في العقد الأخير من حياته فإنه كان على صلة ببعضهم بل قرظ بعضهم ووصفه بالفضل ، ووجد ملاذا آمنا عند بعضهم كصاحب قلعة البونت ، والذي طلب منه أن يصنف له رسالة في فضل الأندلس ، ويرد على من انتقصها من أهل أفريقية ، كما أنه كان على صداقة وصلة قوية بصاحبه أحمد بن رشيق حاكم ميورقة ، والذي عمل ابن حزم كوزير في بلاطه أو مستشار من مستشاريه ، كذلك لا يمكننا أن نغفل الصلة التي ربطت بين ابن حزم وبين ابن صمادح صاحب المرية . حيث طلب الأخير من ابن حزم أن يصنف له رسالة في الوعد والوعيد وبيان الحق في ذلك من السنن والقرآن. فكتبها ابن حزم للأمير أبي الأحوص معن بن محمد التجيبي بين سنتي (433هـ/1041م و443هـ/1051م).

(1) المراكشي ، المعجب ، ص 314،315 ؛ وانظر ابن خلدون ، العبر ، 6/249،247،246 .

المبحث السادس إحراق كتبه ووفاته

وترتبط بمصنفات ابن حزم حادثة خطيرة طالما تكررت بالأندلس كلما ضاق أهلها بأحد ممن يخالفهم من العلماء ، وهى إحراق كتبه علانية بإشبيلية ، بيد أنها لم تفقد من جراء ذلك ، فقد كان له جماعة من تلاميذه النجباء الذين قدروا فكره وحافظوا على كتبه التى كانوا يمتلكونها بنسخها ونشرها بين الناس ، ولذا فعندما أحصاها ابن مرزوق اليحصبى وهو من المتأخرين وجدها ثمانين ألف ورقة ، وهو نفس إحصاء أبو رافع الفضل فى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، ويمكن أن نرجع أسباب هذه الحادثة فى الآتى :-
أولا : ثقة ابن حزم بنفسه عند منزلة كبار فقهاء المالكية ، وعدم تردده فى تسفيه آرائهم طالما خالفت الحق .

ثانيا : تنديده بولاية خلف الحصرى للخلافة بإشبيلية ، ومبايعته على أنه هشام المؤيد سنة 425هـ/1033م فى عهد محمد بن إسماعيل القاضى والد المعتضد بن عباد (1) ، فعندما حل بإشبيلية أوقع به المعتضد أشد إيقاع لما صدر منه من إثارة الناس حول محمد بن إسماعيل رأس الاسرة العبادية .

ثالثا : معارضة فقهاء المالكية له وسعيهم لدى السلطان للإيقاع به وإثارة العامة ضده (2) ، ومن ثم التقت أغراضهم مع ما كان يرمى إليه المعتضد ، فكانت واقعة إحراق كتبه على مسمع ومرأى من الناس .

رابعا : نزعة ابن حزم الأموية ودعوته لإعادة حكم الأمويين فى الوقت الذى قطع فيه معظم ملوك الطوائف كل صلة بالأموية الأندلسية ، وحاول كل واحد منهم أن يحقق استقلالا سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا ، خاصة المعتضد الذى ما وافق على خدعة أبيه بعد وفاته بمبايعة (خلف الحصرى) بإشبيلية على أنه هشام المؤيد إلا ليصنع الشرعية على

(1) أنظر : نقط العروس ، رسائل 97/2 .

(2) ابن حزم ، رسالتان له أجاب فيها عن رسالتين ، رسائل 115،116/3 ؛ وانظر ابن سعيد ، المغرب ،

محاولته الاستقلالية ، وليرضى أصحاب النزعات الأموية بإمارته . فلما تحقق له ذلك أعلن وفاة الخليفة المزعوم .

خامسا : أن ابن حزم لم يكن ينظر إلى أمراء عصره ومنهم المعتضد نظرة إكبار فهو وزير ابن وزير ، وما كان له أن ينظر إليهم أكثر من نظرتيه إلى من دونه أو من ليسوا أكبر منه ، وهم يأنفون من ذلك الأمر الذى دفع المعتضد إلى تدبير مؤامرة تجعله ذليلا لا يشمخ براسه عليه ولا على غيره هي إحراق كتبه .

وبالرغم من هذه المؤامرة التى ألمت بابن حزم فلم يتحقق للمعتضد ما كان يصبو إليه من كسر كبريائه وإذلاله ، بل ظل الرجل يشمخ بمكانته وعلمه وعقله هنا وهناك دون ضعف ولا ذلة ، لكنه أثر السلامة وغادر إشبيلية إلى قريته منت ليشم التى كان يمتلكها ويتردد عليها ، وظل بها يمارس التصنيف والتدريس حتى وافته المنية عشية يوم الأحد 28 شعبان 456هـ / 15 يوليو 1063م⁽¹⁾ ، وليس كما ذهب البعض من أن وفاته كانت سنة 457هـ / 1064م ، ولا 455هـ / 1063م⁽²⁾ ، لأن أبا رافع ولد ابن حزم هو الذى كتب التاريخ الذى ذكرناه ، وهو الأعلم من أى أحد بتاريخ وفاة والده ، فضلا عن أن معظم من ترجم لابن حزم ذكروا سنة وفاته كما ذكرها ابنه الفضل⁽³⁾.

كان ابن حزم قد رثى نفسه قبل وفاته بقليل فى أبيات شعرية كأنه أحس بدنو أجله

(4) قائلا :

(1) الذهبى ، سير أعلام النبلاء ، 211/18 ، وانظر Asin Placios , Aben hazam , T.1 , P. 240, 241.

(2) ياقوت ، معجم الأدباء ، 240/12 ، وانظر غرسيه غومث ، الشعر الأندلسى ، ترجمة حسين مؤنس ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ط 1 ، 1952م ، ص 16 .

(3) صاعد ، طبقات الأمم ، ص 99 ، وانظر ابن بشكوال ، الصلة ، 605/2 ترجمة 898 ؛ ابن سعيد ، المغرب ، 355/1 ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، 569/6 ؛ Roger Arnoldez Grammaire E theologie chez ibn hazm de cordove essal sur Las trueture Et les conditions de pensee musulmane, liprairie philosophique, Paris, 1956 ,P.19 .

(4) أنظر : ديوان ابن حزم ، ص 96 مقطوعة رقم 2 .

كأنك بالزوارلى قد تبادروا	وقيل لهم أودى على بن أحمد
فيارب محزون هناك وضاحك	وكم أدمع تزرى وخد محد
عفا الله عنى يوم أرحل ظاعنا	عن الأهل محمولا إلى ضيق ملحد
وأترك ما قد كنت مغتبطا به	وألقي الذى آنست منه بمرصد
فواراحتى إن كان زادى مقدما	ويانصبى إن كنت لم أتزود

ويمكن تخيل جنازته وقد حضرها تلاميذه بقرطبة وأبناؤه وأصحابه من أمثال ابن عبد البر ، وابن حيان ، وغيرهما ممن تربطه بهم قرابة أو نسب .
وهكذا فقد ذهب ابن حزم إلى مثواه الأخير سائلا الله أن يعفو عنه يوم ظعنه إلى ضيق الملحد ، بعد حياة قضاها في كفاح ونضال ضد الجمود والتقليد ، قاسى خلالها من المرارة والاضطهاد والتشريد ، ما أنضب معين الرقة واللين لديه .

obeikan.com